في أدب العصور المتأخرة

الدكتور ناظم رشيد

في
أَدَبِ العُصُورِ المُتَأَخِّرَة

١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م

منشورات مكتبة بسام

موصل عراق تلفون ٢١٨١

في
أدب العصور المتأخرة

الدكتور ناظم رشيد
كلية الآداب - جامعة الموصل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُل رَّبِّ زِدنِي عِلمًا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

درج كثير من الباحثين على تسمية العصور المتأخرة التي تلت سقوط بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة بيد المغول ب«الفترة المظلمة» أو «العصر المظلم» وهي تسمية – في ظننا – خاطئة ، فان الادب – وان تأثر بالاوضاع السياسية والاجتماعية – لم يهبط إلى الدرك الاسفل من الانحدار والانحطاط اذ يجد الباحث صفحات مشرقة تضاف إلى الصفحات التي شاهدها في العصور التي سبقت سقوط بغداد وانهيار الدولة العباسية .

وقد أولت الجامعات العراقية هذه الحقبة من تاريخ أمتنا كبير عنايتها وفائق رعايتها، ودفعت الباحثين إلى كشف كنوز مخطوطاتها وتحقيقها ووضعها بين أيدي القراء، وشجعت الدارسين على الكتابة فيها وابرازالجوانب القيمة الناصعة في موروثها الحضاري .

وإسهاماً منا في خدمة الادب في هذه الحقبة المظلومة – وليست المظلمة – أقدمنا على تأليف هذا الكتاب الوجيز ليكون مدخلاً إلى دراسة أوسع ، حيث ذكرنا في كل مبحث المصادر والمراجع التي تناولت الادب الذي أصابه الاهمال وجور الاحكام . .

والله نسأل أن يقبل هذا الجهد المتواضع في خدمة تراثنا، ونأمل من طلبتنا الاعزاء أن يتوفّروا على دراسته والافادة منه،ويتضافروا على كشف ذخائره، و ابراز جوانبه المضيئة التي تفيد في ربط حاضرنا بماضينا ، والله ولي التوفيق .

الدكتور ناظم رشيد
كلية الاداب – جامعة الموصل

الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية

الحياة السياسية :

أطل القرن السابع للهجرة على العالم العربي، وهو في حالة ضعف وفوضى واضطراب، وكان الخلفاء أُلعوبة بيد الاعاجم الذين تصرّفوا بالبلاد كما شاؤوا . وازدادت حدّة الفوضى والاضطراب في أيام الخليفة المستعصم بالله، فقد كان ضعيف الرأي منصرفاً إلى اللذّة واللهو ومسلّماً أمور دولته إلى رجل يدعى ابن العلقمي الذي ولي الوزارة أربع عشرة سنة، وتعاضد مع التتر لاسقاط دولة بني العباس (١) ليستخلص الحكم لنفسه واتباعه لكن خاب سعيه ومات دون أن ينال مبتغاه .

ان ضعف الخلافة، وتفرّق الناس شيعاً وأحزاباً وفقدان الامن والطمأنينة شجّعت هولاكو على الزحف نحو العراق والبلاد العربية والسيطرة عليها فتوجه نحوها، واحتلّ في طريقه بلاد فارس، وفتك بأهلها أشدّ الفتك وقبل وصوله إلى بغداد حذّر الناسُ الغيارى الخليفة المستعصم بالله من هذا الزحف، والعواقب الوخيمة التي تنتظر رعاياه انْ لم يباشر إلى إعداد جيش قوي وتهيئة عُدد، واصلاح الاوضاع الداخلية وتقويمها ولكنه لم يلتفت إلى ذلك ، وترك الامر سائباً ،وبقي سادراً في لهوه وملذته . قال ابن الطقطقا (٢) :«وكان المستعصم آخر الخلفاء شديدَ الكلف باللهو واللعب وسماع الاغاني ، لايكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعُم واللذات ، لايراعون له صلاحاً ،وفي بعض الأمثال :الحائن (٣) لايسمع صياحاً . وكتبت له

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣: ١٩٣. عيون التواريخ ٢٠: ١٩٣. معاهد التنصيص ٤: ٨٤

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ٤٦

(٣) حان الرجل: هلك، فهو حائن.

الرقاع من العوام ، وفيها أنواع التحذير ،وألقيت فيها الاشعار في أبواب دار الخلافة ، فمن ذلك:

قل للخليفة مهلا   أتاك ما لا تحب
ها قد دهتك فنون   من المصائب غرب
فانهض بعزم والا   غشاك ويل وحرب
كسر وهتك وأسر   ضرب ونهب وسلب

وكل ذلك وهو عاكف على سماع الأغاني ،واستماع المثالث والمثاني، وملكه قد أصبح واهي المباني».

وانطلقت ألسنة الشعراء تكشف واقع المجتمع الفاسد ،والمصائب التي تنتظره ،وكان أجرأ شاعر في هذا الميدان مجد الدين النشابي (ت٦٥٧هـ) الذي نظم قصيدة طويلة مطلعها :(١)

ياسائلي ولمحض الحق يرتاد   أصخ فعندي نشدان وإنشاد

أشار فيها الى أضطراب الاوضاع وفسادها، واختلال الأدارة ، ونظام المصادرة، والتعدي على الناس، والقضاء على الحريات ،ومحو العدل والمساواة وأنتقد بشدة الوزراء ورجال الخليفة المنشغلين بعبثهم، وقصفهم، الغارقين في غيهم ومجونهم. وتهجم على رجال الدين الذين تركوا ما أوصاهم به الله وما أوجب عليهم من نصح العباد وارشادهم. وفي آخر القصيدة تمنى الموت قبل رؤية المسلمين، وهم واقعون في كارثة يشيب من هولها الولدان فقال :

اين المنية مني كي تساورني   فللمنية إصدار وايراد
من قبل واقعة شنعاء مظلمة   يشيب من هولها طفل وأكباد

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٢٠، وتنسب أيضاً الى عبد القاهر بن الفوطي (العسجد المسبوك ص ٦٢٤، وفيه ابن القرطبي ، وهو تصحيف، وقد أشار الى ذلك الدكتور مصطفى جواد في مجلة المجمع العلمي العراقي. المجلد الثالث ١ : ٣٢٦).

لقد كانت القصائد الشعرية التي حذر فيها الشعراء المسؤولين ورجال الحكم صيحة في واد ونفخة في رماد. وزحف «هولاكو» نحو العراق بمائتي الف محارب ودخل بغداد سنة ٦٥٦هـ، وقتل الخليفة وأناساً كثيرين، وشوه معالم الحضارة والمدنية المعمورة منذ قرون عديدة (١).

ولما استقر التتر في بغداد، خضعت لهم كافة المدن العراقية خوفاً ورهبة وقاسى الناس في ظل حكمهم الويلات والمصائب.

وهلك الطاغية هولاكو سنة ٦٦٣هـ، وتولى الحكم ابنه «أباقا خان» وكان خيراً من أبيه اذ طمأن الناس على انفسهم واموالهم بعض الاطمئنان، ومات سنة ٦٨٠هـ، واجتمع امراء التتر، وأختاروا «تكودار خان» وهو ابن هولاكو وقد أسلم وتسمى بأسم احمد، وثار عليه «أرغون» ابن أخيه وقتله وانتزع الملك لنفسه، ويقال ان اسلامه سبب قتله. وجاء بعده أخوه «كيخاتو خان» وكان رجلا سيئاً، متهالكاً على اللذات، وقتل سنة ٦٩٤هـ، وتولى السلطة من بعده «بايدو» الا أنه لم يحكم الأ شهوراً، فقد انتزع منه الملك «غازان بن أرغون» الذي أسلم، وأسلم معه مئة الف من جنده، وبقي الحكم في هذه الأسرة الى ان انقرض سنة ٧٣٨هـ. وخير مايوصف عهدهم بقول أحد الباحثين (٢): «فزمانهم زمان نزاع وتخاصم، والملك لمن غلب، والحق للأقوى، والفوضى تهيمن على مرافق دولتهم من كل جانب، وادارتهم مفككة يعوزها النظام واتحاد الكلمة. وقد تجلت كل مظاهر هذا الضعف والفساد في حكومة العراق، فلم تكن لبغداد والبصرة والجزيرة حكومة متحدة تنتظمها جميعاً، بل كان الحكام والأمراء يتحاسدون ويتباغضون ويتربص كل منهم بصاحبه الدوائر، وأن اسرة حاكمة هذا شأن أفرادها وأعوانهم، ولايمكن ان تفتح للبلاد طريقاً إلى الخير ولا أن تأخذ بيد الرعية الى المجد والفلاح».

---

(١) ينظر عصر الانحدار ص ٨ – ٢٦.

(٢) في الادب الاسلامي، فضولي البغدادي ص ١١٩.

واعتلى منصة الحكم الشيخ حسن الكبير الايلخاني أمير بلاد الروم، ولم يطل عهده ، اذ استولى الجلائريون على البلاد، وهم قوم من عنصر مغولي أيضاً، وكان ذلك سنة ٧٤٠هـ. وعاد في هذا العهد الى بغداد بعض رونقها فقامت العمائر ، وشيدت المدارس الكبيرة، ومن أشهر أمرائها مرجان ابن عبد الله الأولجاني. وكان من أهل الفضل، أشاد مدرسة على غرار المدرسة النظامية الكبرى التي بناها الوزير السلجوقي نظام الملك، وبنى دار الشفاء لتكون معهداً ومستشفى ، كما بنى كثيراً من الخانات والأسواق.

وبقيت الدولة الجلائرية قائمة الى ان هجم عليها «تيمورلنك» سنة ٧٩٥هـ وفتك بأهل بغداد أفظع الفتك ، وأتلف تحفها وذخائرها ودورها وقصورها ومكاتبها ومرافقها ومدارسها وجوامعها، ولقي الناس من جنده الويلات حتى اقفرت المدن ، وأضحى جميع أهلها فقراء، ومات خلق كثير من التعذيب والجوع والأوبئة ، وزحفت جيوشه نحو الديار الشامية وأذاقتهــا الفتك والهوان، لاسيما حمص وحماة ودمشق (١).

ولما هلك تيمورلنك سنة ٨٠٦هـ عادت الدولة الجلائرية الى الحكم من جديد ، ولكنها لم تدم طويلا ، حيث قامت دولة قراقو يونلو التركمانية سنة ٨١٤هـ، وبقيت تحكم الى سنة ٨٧٤هـ، وأعقبتها دولة آق قويونلو ، وقد اتخذت الأغنام البيض شعاراً لها، بمقابلة قراقو يونلو الذين كانوا يتخذون الأغنام السود شعاراً لهم.

وما كادت الاخيرة تضعف حتى جاء الصفويون سنة ٩١٤هـ وأقاموا دولة فارسية ، وكان عهدهم عهداً أسود ظالماً، ولم يطل حكمهم، اذ نازعهم الأتراك العثمانيون ، واستولوا على العراق سنة ٩٤١هـ. ولم يصف جو البلاد الا في عهد نفر من ولاتهم المصلحين وسلاطينهم المشهورين مثل سليمان القانوني الذي مكث في بغداد ستة أشهر وأصلح شؤونها «وزار كربلاء

(١) ينظر عصر الانحدار ص ٧٠

والنجف وأصدر أوامره بحفر قناة تأتي بماء الفرات ليغمر الخصب سهل كربلاء، فزكا زرعه وأتى أكله وسدت غلاته حاجة أهل بغداد جميعاً وأحاطت الرياض بمشهد الحسين بعد ان كانت الرياح تسفي عليه (١)» وانتهت الدولة العثمانية سنة ١٣٣٥هـ .

ولم تكن مصر بأحسن من حال العراق ،فان الاسرة الأيوبية الحاكمة فقدت قوتها في أيامها الأخيرة، وسقطت سنة ٦٤٨هـ بيد المماليك الذين امتد حكمهم الى الشام والحجاز ،وكان اول حاكم لهم عز الدين أيبك الذي قتل غيلة بعد فترة وجيزة من حكمه، وجاء قطز، وهو رجل داهية ساس البلاد خير سياسة ، واستطاع تحطيم جيش التتر في الشام والانتصار عليهم في «عين جالوت»، ولكنه قتل أيضاً، وتسلم الملك بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨هـ، وكان رجلا حازما ، أحسن الى الرعية ، وازال عنهم كثيراً من الضرائب . وفتح بابه لاستماع شكاواهم، وأشاد المدارس والمساجد وتوفي سنة ٦٧٦هـ، واعتلى منصة الحكم ابنه محمد، وكان فيه كثير من نزق الشباب وطيشه ، فعزل عن عرشه ، واعتلاه سيف الدين قلاوون الألفي، وتلقب بالملك المنصور، وهو الذي شتت شمل المغول في الشام وحارب الصليبيين ، ومات سنة ٦٨٩هـ. وتولى الملك بعد ابنه صلاح الدين خليل، وتلقب بالملك الأشرف ، وكان شجاعاً ، جهز حملة بقيادته على الصليبيين في عكا التي كانت الحصن الحصين الوحيد الذي بقي بيدهم ، فدكها ، وشرد جموعهم ، وعاد الى القاهرة، وبين يديه الاف الاسرى ولم تقم للصليبيين بعد ذلك قائمة. ولما توفي سنة ٦٩٢هـ تولى السلطة أخوه محمد ، وتلقب بالملك الناصر ، وفي عهده بلغت دولة المماليك أوجها ، ومات سنة ٧٤١هـ بعد حكم دام ثلاثاً وثلاثين سنة ، وتعاقب على السلطة ملوك ضعفاء وانتهى عهدهم سنة ٧٨٤هـ ، وكانوا يعرفون بالمماليك البحرية ، وجاء بعدهم المماليك الشراكسة، وكان أول ملك لهم الظاهر برقوق، وتولى بعده

(١) في الأدب الاسلامي، فضولي البغدادي ص ١٢٣

ثلاثة وعشرون ملكاً . وكان آخرهم الاشرف طومان باي ، الذي لم يستطع الوقوف أمام الجيوش العثمانية وقتل سنة ٩٢٢ هـ وشنق على باب زويلة وفي ذلك يقول ابن اياس (١) :

نوحوا على مصر لامر قد جرى ومصيبة عمت بليتها الورى

ومنها ، وفيه إشارة الى شنق طومان باي :

شنقوهُ ظلماً فوقَ بابِ زويلة ولقد أذاقوهُ الوبالَ الأكبرا
يارب عفواً عن عظائم جرمه واجعلْ بجنّاتِ النعيمِ له قرى

وانتهت دولة المماليك الشراكسة بعد أن حكمت مصر والشام والحجاز ١٣٩ سنة ، أما الحكم العثماني فانه استمر الى سنة ١٢٢٠هـ وهي السنة التي استولى فيها محمد علي الكبير على الحكم .

أما المغرب العربي في شمال أفريقيا فقد تنازع الحكم فيها الموحدون والمرينيون والحفصيون الى أن جاءها الحكم العثماني ، ثم الغربي من إسبان وبرتغاليين وفرنسيين .

---

(١) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ١٠

الحالة الاجتماعية

ساءت الاوضاع الاجتماعية بعد سقوط بغداد ، اذ استولى الغرباء على خيرات البلاد ، وقضوا على موارد الثروة ، وتركوا السكان الاصليين في بؤس وشقاء . كما فسدت الاخلاق ، وكثر الدجالون الاشرار والمفسدون لاسيما الذين كانوا يسمون أنفسهم بـ «الشطّار» فقد عاثوا في البلاد فساداً وابتزوا أموال الناس ظلماً وعدواناً ، وكم أحرقوا البيوت والزروع ، ورجال الشرطة ، واهل الاحتساب لاهون ساهون ، أو أنهم كانوا يخافون فلا يستطيعون ايقاف أعمالهم المريبة أو الشائنة ، أو الحيلولة دون جرائمهم الشيطانية الغريبة (١) . وكثر في المجتمع الغش وفساد الضمائر . ولا ننسى في هذا المقام سوء الحالة الصحية وتفشي الامراض وهجوم الطاعون والوباء بين حين واخر .

أما حالة الاسرة فلم تكن أفضل من غيرها ، فقد تفكك عراها ، وانحط شأن المرأة ، وهبط مستوى أولادها ، وصار الرجل يقسو في معاملتها ويمنعها من الخروج ، ويسدل عليها ستار الجهل ويشدّد عليها الحجاب والانزواء عن مجالس العلم وحلقات الادب التي كانت تغشاها في العصور السابقة .

وكانت الحالة الاجتماعية في مصر والشام أحسن مما عليه في العراق ، فان المماليك حموا الديار التي سيطروا عليها من المغول والصليبيين . وبلغ الترف في أيامهم حداً بعيداً ، وتفنن بعض الناس في مأكلهم وملبسهم ، روى المؤرخون أن الاسياد قد رصعوا عصائب شعور نسائهم وثيابهنّ وخفافهنّ بالجواهر واللآليء ، كما رصعوا انية شرابهم وطعامهم بالذهب والحجارة الكريمة ، واتخذوا في مجالس لهوهم آنية وتماثيل ودمى من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة واللؤلؤ ولبسوا الثياب المزخرفة وافترشوا الدمقس والحرير والديباج ، واستعملوا آلات الشطرنج والنرد المصنوعة من الذهب والفضة والابنوس والعاج ، ووجد في خزائن بعضهم من أصناف

---

(١) ينظر عصر الانحدار ١٤٩ - ١٥٦ ، ومطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٣٧

الثياب والحلي والرياش والاثاث مايقدر بملايين الدنانير (١) .

وشاعت عادة تناول الحشيش،وفعل الموبقات حتى اضطر الملك بيبرس سنة ٦٦٥هـ في القاهرة الى أصدار مراسيم بابطال تدخين الحشيش،وشرب الخمور. ومعاقبة المقبلين على المنكرات،كما أمر عماله أن يراقبوا أحوال الناس والباعة ويراقبوا الموازين والمكاييل ، وينظروا في أمر الاسعار ويتشددوا في مراقبتها .

أما التبغ فانه ظهر في مصر لاول مرة سنة ١٠١٢هـ كما ذكر الاسحاقي في تاريخه ، وذكر لنا رأيه فيه ، فقال (٢) «ان الدخان مضر بالابدان ، وهو يابس الطباع ، الذي لاشيء فيه من الانتفاع .... المسود للاسنان، . المهرب للملائكة الرحمن ... عاقبته وخيمة ، ومداومة شربه ذميمة ، يورث النتن في الفم والمعدة، ويظلم البصر ، ويطلع بخاره على الافئدة» وهناك من أثنى عليه ، مثل قول أبي المواهب البكري (٣) (ت ١٠٣٧هـ) :

هات اسقني التبغَ إنْ تبغ الصفا سحراً حتى أخدِّر منه وهو اغشاءُ
واستجلِ أنوارَ شمعٍ من يدي رشأ قـد زانـه قامةٌ بالحسنِ هيفاء
لعلَّ نارَ أسى بالبعد قد وقـدتْ يوماً يكون لها بالقـربِ إطفاء
فاملأ كؤوس رحيق كالحريق فقد أغنتك اذ وصفت باللطف صهباء(٤)
ودع ملامَ طبيبٍ عابهـا سفهاً (وداوني بـالتي كانت هي الداء)(٥)

وكانت الجزيرة العربية بعيدة عن الاصلاح، لذا اضطربت أحوالها، وامتدت الفوضى إليها،وبخاصة الحجاز، فان أهلها أخذوا يقاسون الويلات من المعيشة الضنكة ،ومن حوادث السلب والنهب، ولاقت قوافل الحجاج وزوار الحرمين من بدو الحجاز وسائر الجزيرة أموراً مقلقة .

---

(١) عصر الانحدار ص ١٧٨ .
(٢) أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ص ١٦٦
(٣) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ٢٤ .
(٤) كان التبغ يوضع في الأحجار التي تتخذ في النار جيلة، ولذلك ذكر الشاعر النار في الكؤوس ويعني بها الأحجار، كما ذكر السالي في الذي تاوله هذه النارجيلة، وتغزل فيه على عادة شعراء الخمرة .
(٥) عجز البيت لابي نواس (ينظر ديوانه ص ٦)

الحياة الثقافية :

ظلت الحركة الفكرية قوية نشيطة حتى أواخر العهد العباسي ،سواء في العلم أم في الأدب ،أم في الفن ،فلما نكبت بغداد بالغزو التتري، واجتاحت الديار الجيوش المخيفة، أصاب الناسَ عموماً بلاءٌ كبيرٌ من تقتيل ونهب واحراق، وذهبَ ضحية هذا الهجوم كثير من العلماء الفضلاء أمثال: يحيى بن يوسف الصرصري الضرير الشاعر المشهور،ومحيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، والامام محمود بن أحمد الزنْجاني ... واستبقى هولاكو بعض العلماء ممن كانوا يجيدون لغته أو يتقنون علوم الفلسفة والرياضيات والطبيعة التي كانت تعجبه فأخذهم معه إلى عاصمة ملكه .

أما المدارس ودور العلم وخزائن الكتب وربط الصوفية فقد أصابها أذى كبير، وأضحت لاتتجاوز أصابع اليد بعد ان كانت تتجاوز المئات، ومن المدارس التي بقيت في تلك الحقبة، ولم يصبها تلف كبير النظامية الكبرى، والمستنصرية ، والبشيرية .ومما هو جدير بالذكر أنه لم يمض وقت طويل حتى عادت حركة إشادة المدارس والربط من جديد على الرغم من هجرة العلماء والأدباء إلى الاقطار المجاورة . ومن مشهوري العلماء في هذه الحقبة ابن الفوطي مؤرخ العراق الكبير، وابن أبي الحديد الأديب الكاتب شارح نهج البلاغة ،والامام الصاغاني اللغوي الأديب ،وابن الساعي خازن دار كتب المستنصرية وأحد كبار مؤرخي بغداد ، وسواهم (١) .

---

(١) تنظر الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري ص ١٩٣ - ٣٢١. والأدب العراقي في العصر المغولي للدكتور مصطفى جواد في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث ، الجزء الثاني سنة ١٩٥٥.

أما في مصر والشام ، فإن المماليك ساروا على الدرب الذي اختطه الأيوبيون من قبلهم ، فأكثروا من المدارس حتى قال المقريزي في خططه أن مدارس المماليك في الشام ومصر قد بلغت نحواً من سبعين مدرسة ومعهداً للتدريس، ويقال إن مثل ذلك العدد كان في الأصقاع والولايات التابعة لهم.

ومما يجدر ذكره هنا أن اللغة العربية وعلومها كانت مزدهرة في العصر المملوكي ؛ لأن المماليك كانوا يتعلمونها ويعلمونها أبناءهم ومماليكهم، ويشجعون على اتقانها ، والبراعة فيها وفي آدابها وعلومها «وألفت كثير من الكتب برسم كثير من السلاطين ، وإن الكثرة مما بأيدينا من كتب الادب العربي الآن ، إن هي إلا ثمرة من ثمرات هذا العهد الميمون الذي لم تتعرض كتبه لما تعرضت له كتب المشرق والغرب من حرق واتلاف (١) .

ولما جاء الأتراك العثمانيون واحتلوا العراق والشام ومصر والحجاز هبط المستوى الثقافي واقتصر على فئة قليلة من الناس . وتدنت أساليب التدريس وطرائق الكتابة (٢) .

أما ديار المغرب العربي فإن الثقافية بقيت مزدهرة فيها ، وكان لعلمائها وأدبائها دورٌ بارزٌ في نقل الحضارة العربية إلى أوربا ، وقد ازدادت مكانة المعارف رفعة وسمواً فيها بعد نزوح العلماء والأدباء والفنانين والبنائين من الأندلس اليها ، ثم خبت جذوتها بعد مجيء العثمانيين فالاحتلال الأوربي ، وننقل هنا أبياتاً للشاعر محمد بن عبد السلام (ت٩٧٥هـ) الذي استقر في دمشق بعد نزوحه من تونس (٣) :

---

(١) تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين ص ٣٢ .

(٢) ينظر ظهر الاسلام لأحمد امين ٤ : ١٩١ - ١٩٥ ، وأدب العراق في العهد العثماني ، بحث للدكتور علي أحمد الزبيدي المنشور في مجلة كلية الآداب ببغداد ، العدد ٢٦، حزيران ١٩٧٩ .

(٣) الأدب في العصر المملوكي للدكتور محمد كامل الفقي ص ٢٥ .

سلوا البارقَ النجديّ عن سُحبِ أجفاني
وعما بقلبي من لواعج نيرانـــــي
ولا تسألوا غيرَ الصبا عن صبابتـــــي
وشدّة أشواقي اليكـم وأشجانـــــي
تحيـة مشتاقٍ إلى ذلكَ الحمـــــي
وسكانـه والنازحـينَ بأظعـــــانِ
سقى الله هــــاتيك الديــار واهلهـــا
سحائبُ تحكي صوب مدمعي القاني
هي الحضرةُ العليا مدينة تونـــــس
أنيسة إنسانٍ رآها بإنـــــسانِ
وكــانتْ لطـلابِ المعــارفِ قبلـــة
لما في حماها من أئمةِ عرفـــانِ
إلى أن رمتها الحادثاتُ بأسهــــم
وسلّتْ عليها سيفَ بغي وعـــدوانِ
فمـا الدّهرُ إلاّ هكذا فاصبرنْ لـــه
رزية مال أو تفرق خـــــلانِ

الباب الأول

الشعر

الفصل الأول

الشعر وخصائصه الفنية

لم ينضب معين الشعر العربي بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ولم يحجم عنه الناهلون ، ولكنه لم يكن متدفقاً بقوة كما نلمحه في العصور السابقة ، لاسيما في العصر العباسي الأول .

لقد انقضت عهود التشجيع للشعر والرعاية الكبيرة له ، واضمحلت المجالس والمحافل التي تستقبل الشعراء وتحتفي بهم . فالملوك والرؤساء في بغداد أعاجم لايعرفون اللغة العربية ، وجانب كبير من الشعب جاهل لايفهم الشعر ولا يستسيغه .

أما في مصر والشام فقد وجد الفن الشعري جواً لابأس به ، استطاع أن يقوى على الوقوف والصمود ، فإن الملوك المستعربين أحاطوه برعايتهم أمثال بني أرتق في ماردين ، والملوك الأيوبيين في حماة وحصن كَيْفا ، وعدد من سلاطين المماليك الذين ولدوا في البلاد الاسلامية ونشؤوا فيها كالملك الناصر محمد بن قلاوون واخوته .

ولم يعد الشعر في هذا العصر مقتصراً على فئة معينة بل أصبح شائعاً بين مختلف طبقات الشعب ، يتخذونه وسيلة للتسلية والتفكه والمتعة حيناً ، والجدّ والعمل حيناً آخر . فكان من أصحابه الوزراء والأمراء والقواد و الفقهاء والقضاة والوراقون والكحالون والخياطون والدهانون والنجارون والبزازون والحدادون والفخارون وسواهم من الحرفيين .

ولما كان الشعر في الغالب يعبر عن الأحاسيس والمشاعر ، فقد جاء شعر الكثيرين صادقاً في تصوير الحياة ، وأميناً في نقل دقائق الأحداث .

نظم الشعراء في مختلف الأغراض المعروفة كالمديح ، والرثاء ، والغزل والفخر والحماسة ، والهجاء والوصف ، والزهد والتصوف ، والمجون والخمريات ، والاخوانيات ...

وكان المديح من أبرز أغراض الشعر في العصور المتأخرة . وقد غلب عليه التقليد ، لاسيما في المقدمات الغزلية المصنوعة ، ومثال على ذلك قصيدة صفي الدين الحلي في مدح ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون التي عارض فيها قصيدة أبي الطيب المتنبي التي يقول في مطلعها (١) :

بأبي ، الشموسُ الجانحاتُ غواربا ... اللابساتُ من الحريرِ جلاببا

وقصيدة صفي الدين الحلي أولها(٢) :

أسبلنَ من فوقِ النهود ذوائباً ... فجعلنَ حباتِ القلوب ذوائباً
وجلونَ من صبح الوجوه أشعة ... غادرنَ فودَ الليلِ منها شائبا

وحينما يصل الى المديح يحشر صفات في غاية المبالغة ، توحي للقاريء انها غير صادقة ، وتفتقر الى الجدة والحياة والحركة :

ترجى مواهبهُ ويرهبُ بطشهُ ... مثلَ الزّمانِ مُسالماً ومُحاربا
فإذا سطا ملأ القلوبَ مهابةً ... واذا سخا ملأ العيونَ مواهبا
كالليثِ يحمي غابَهُ بزئيره ... طوراً،ويُنشبُ في القنيص مخالباً
كالسيفِ يُبدي للنواظر منظراً ... طلقاً ، ويُمضي في الهياج مضاربا
كالسيلِ يحمدُ منه عذباً واصلا ... ويعدُّهُ قومٌ عذاباً واصبا (٣)
كالبحرِ يُهدي للنفوس نفائساً ... منه ، ويُبدي للعيونِ عجائباً
فإذا نظرتَ ندى يديهِ ورأيَهُ ... لم تُلفِ الاصائبَ أو صائبا (٤)

---

(١) شرح ديوان المتنبي ١: ٨٨ .

(٢) ديوان صفي الدين الحلي ص ٩٥ .

(٣) الواصب: المرض. (٤) الصائب الأول: المطر، الثانية: السديد، المصيب.

وتوجّه كثير من الشعراء الى مديح الأصدقاء ، والزملاء ، والفضلاء من أعيان الرجال والعلماء ، ولم يكن القصد منه الحصول على المال ، بل للوفاء والتعبير عن مشاعر الود والاخلاص .

وزها المديح النبوي في تلك الحقبة الهائجة المائجة ، وكثر الاقبال عليه ، وعمّ تعاطيه من أرباب القريض ، وراجت سوقه رواجاً مشهوداً ، بعد أن تضافرت له الدواعي والأسباب (١). وألفت فيه دواوين ، مثل «صحائح المدائح» لابن ابي الاصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) ، و «الضراعة الناجحة والبضاعة الرابحة» لأبي الحسن يحيى بن عبد العظيم الجزار (ت ٦٧٩ هـ) و «بشري اللبيب بذكرى الحبيب» لابن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤ هـ) و«منتخب الهدية في المدائح النبوية» لابن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ) و «فرائد الأشعار في مدح النبي المختار » لابن العطار الدنيسري (ت ٧٩٤ هـ) و «شفاء الكليم بمدح النبي الكريم» لابن عربشاه الدمشقي (ت ٩٠١ هـ) .

وكانت الغالبية العظمى من قصائد المديح النبوي ممهدة بأبيات ، قد تطول أو تقصر تخلص الى الغرض الأساس . وللشعراء مسالك شتى فيها . وكان للغزل – بنوعيه المؤنث والمذكر – القدح المعلى ، والنصيب الأوفر ؛ فالغزل بالمؤنث لايختلف في شكله ومضمونه عن الغزل الحسي الذي يتناول وصف مفاتن النساء ومحاسنهنّ ، واقبالهنّ وادبارهنّ ، وغنجهنّ ودلالهنّ وما يعاني المحب من سهر وارق وقلق وانتظار واشتياق . وهذا اللون من الغزل غالباً مانجده في مطالع القصائد التي نظمت معارضة لقصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير التي أنشدها بين يدي الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – واشهر من عارضها ، الصاحب شرف الدين الأنصاري (ت٦٦٢هـ) ومحيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ) ، وشبيب بن حمدان (ت ٦٩٥ هـ) وشرف الدين محمد بن سعيد البوصيري (ت ٦٩٥ هـ) ، واحمد بن عبد الملك

(١) ينظر بحثنا «المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية» مجلة آداب الرافدين – العدد ١٤ لسنة ١٩٨١ .

العزازي (ت ٧١٠ هـ) ، وابن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤ هـ) ، وابو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) ، وابن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ) ، وابن حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ) .

ولو أمعنا النظر في هذا الغزل لوجدناه – في الأعم الأغلب – قريب المأخذ سهل المعنى ، قليل التلاعب اللفظي ، تكلله هالة من العفّة والطهر والرزانة ماخلا قصيدة أبي حيان الأندلسي ، اذ تجاوز هذا الشاعر الحد المعقول ، وأسرف في كشف مفاتن الحبيبة ، وبيان سحر أعضائها، وأول قصيدته (١):

لاتعذلاه ،فما ذو الحبِّ معذول ... العقل مختبل والقلب متبول
هزَّتْ له أسمراً من خوط قامتها ... فما انثنى الصبُّ إلاّ وهو مقتول

ومنها :

فالنحر مرمرة ، والنشر عنبرةٌ ... والثغر جوهرةٌ ، والريق معسول
والطرف ذو غنَجٍ ، والعرف ذو أرجٍ ... والخصر مختطفٌ ، والمتن مجدول
هيفاء ينبس في الخصر الوشاح لها ... درماء تخرس في الساق الخلاليل
من اللواتي غذّاهُنَّ النعيم فما ... يَشْقَيْنَ ، آباؤها الصّيد البهاليل

ويسترسل أبو حيان في هذا الغزل الحسي حتى يخلص منه الى مدح النبي محمد – صلى الله عليه و سلم – وهو – كما مرّ – يتناول أجزاء الجسد وأقسامه ويعرضه للسامع وكأنه نخّاس يعرض جارية للبيع في سوق الرقيق .

(١) ديوان ابي حيان الأندلسي ص ٤٦١ .

والمذهب الثاني في ابتداء القصائد المدحية هو التشبيب بالديار الحجازية وذكر معالمها ، أو الحنين اليها ، والتشوق الى ساكنيها ، والبكاء على قاطنيها، ووصف الابل الضامرة ، وحديث السُرى ، والمناهل والنباتات والمواضع التي تقع على امتداد الطريق ، والريح والبرق والرعد والغيث ، وكل الظواهر الطبيعية التي تراها العين . ويعد البوصيري فارس هذا الميدان ، وبخاصة في قصيدته المعروفه بـ «البردة» التي مطلعها (١) :

أمن تذكُّرِ جيرانٍ بذي سلمِ
مزجتَ دمعاً جرى من مقلة بدم

وعارضها الكثيرون ، ونهجوا نهجها . ومنهم مَنْ مدح الرسول من غير معارضة ،مثل عمر بن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) في قصيدة طويلة مطلعها(٢) :

أدرْ أحاديثَ سلعٍ والحمى أدر
والهجْ بذكرِ اللّوى أو بانهِ العطر

لم يجد المسلمون من يحميهم ، ويدفع الضيم والعدوان عنهم ، وعجزت وسائلهم المادية الضعيفة عن دفع عوادي الدهر وغوائله ، فالتجأوا الى الرسول جاعلين التضرع والتوسل سبيلين الى النجاة والخلاص . واتخذ بعض الشعراء من المدائح النبوية ذريعة للتحدث عن حال العرب بعد استبداد الأعاجم بمقاليد الأمور ، والسيطرة على مرافق الحياة الهامة . من ذلك ماقاله الشاب الظريف (ت ٦٨٨ هـ) في احدى نبوياته (٣) :

أرض الأحبّةِ من سفحٍ ومن كُثُبِ
سقاك منهمر الأنواء من كَثَب

ولا عدتْ أهلكِ النائينَ ن تقَسِ الـ
صبا تحية عاني القلبِ مكتئب

(١) ديوان البوصيري ص ١٩٠ .
(٢) ديوان ابن الوردي ص ٢٠١.
(٣) ديوان الشاب الظريف ص ٥٦ .

قومٌ هم العرب المحميُّ جارهـــم
فلا رعى الله إلا أوجهَ العـــرب

أعزُّ عندي من سمعي ومن بصري
ومن فؤادي ، ومن أهلي ومن نشبي

لهم عليَّ حقوقٌ مذ عرفتهـــم
كأنني بينَ أمٍ منهـــم وأب

إنْ كان أحسنَ مافي الشعر أكذبُـــه
فحسن شعري فيهـم غير ذي كذبِ

ياساكني طيبةَ الفيحاء هل زمـــنٌ
يلفي المحبَّ لنيـل السؤل والأَرب؟

أرضٌ معَ اللهِ عينُ الشمسِ تحرسها
فإن تغبْ حرستهـا أعين الشهـب

وكان شعر الرثاء من الأغراض البارزة في هذه الحقبة . فإلى جانب رثاء الأحباب والاصحاب نجد رثاءً للمدن الزائلة ، وبكاءً على الدول البائدة(١) فهذا شاعر من بغداد اسمه شمس الدين محمد بن أحمد الكوفي (ت ٦٧٥هـ) يبكي على بغداد ، مهد العلم والأدب ودرّة الحضارة ، بعد أن فارقها على أمل العودة اليها ، واذا بيد التتر الباغية تضربها وتحيلها إلى خرائب يباب ؛ فيأتيها ويرثيها بقصيدة حزينة ، تُعبّر عن صدق المعاناة تجاه المدينة المضروبة وقد ذكر في مطلعها صحبه وأصدقاءه الذين ودّعهم إلى غير رجعة ، وتمنى الموت بعدهم ، قال (٢) .

(١) ينظر «تقويم جديد لدور الأدب في العصور المتأخرة» بحث الدكتور نوري حمودي القيسي، مجلة كلية الآداب – بغداد .
العدد ٢٢ ، سنة ١٩٧٨ .

(٢) فوات الوفيات ٢: ٢٣٤ .

إن لم تقرّح أدمعي أجفاني من بعد بُعدهمْ فما أجفاني
إنسان عيني مذ تناءت داركم ماراقَهُ نظرٌ إلى إنسان
ياليتني قد متّ قبلَ فراقكم ولساعة التوديع لا أحياني
مالي وللأيام شتّتَ صرفُها حالي ، وخلّاني بلا خلّان

وتعجب الشاعر – بعد تطوافه ببغداد – من تبدل الوجوه ، وغياب الأهل والجيران ، وما حلّ بها بعدما جالت فيها معاول الهدم ، وألسنة النيران :

ماللمنازل أصبحت لاأهلها أهلي ، ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ماحلّها من بعدكم غير البلى والهدم والنيران

ووقف مذهولا أمام الدار الخربة – وهي ليست وقفة الشعراء على أطلال محبوباتهم الظاعنات – وسألها عما دهاها وأصابها، وكيف تحولت إلى هذه الحالة المؤلمة بعد عزّ ورخاء ، وقوة ومنعة :

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ووقفت فيها وقفةَ الحيران
وسألتها ، لكنْ بغيرِ تكلمٍ فتكلمت ، لكنْ بغير لسانِ
ناديتها : يادار ماصنعَ الأولى كانوا هم الأوطارَ في الأوطان
أينَ الذين عهدتهم ، ولعزهم ذلاً تخرُّ معاقد التيجان
كانوا نجوم من اهتدى فعليهم يبكي الهدى ، وشعائر الأيمان

فردت الدار على سؤاله بجواب لطيف : إن أهوال الدهر وحوادثه أفنتهم كما أفنت دولة كسرى :

قالت : غدوا لما تبدّد شملهم وتبدّلوا من عزّهم بهوان
أفنتهم غير الحوادثِ مثلما أفنت قديماً صاحبَ الأيوان

لم يصف الشاعر في قصيدته المدينة المنكوبة تفصيلا ، وانما أشار الى ما أصابها من دمار وخراب اشارات عابرة ، وانشغل بوصف حزنه على فراق أحبابه ، وألمه الذي أصابه بعد نكبتها . ولم يستطع أن يتخلص – وهو

في موقف الحزن والاسى — من التزيين اللفظي والمعنوي — من الجناس والطباق ورد الصدر على العجز ...

لقد كانت النكبة التي حلت ببغداد عظيمة ، والفاجعة التي داهمتها كبيرة ، وقد قدر لشاعر آخر اسمه تقي الدين اسماعيل بن أبي اليسر التنوخي مسند الشام (ت٦٧٢هـ) أن يكون في عداد من شهدوا النكبة وعانوا من أهوالها ، فبكاها بقصيدة طويلة ، مطلعها (١) :

لسائلِ الدمعِ عن بغداد إخبار ۝ فما وقوفكَ،والإحباب قد ساروا؟

بكى الشاعر في قصيدته على بغداد ، وتأسف على كنوزها التي أصبحت نهباً رخيصاً بيد طائفة ظالمة لارحمة في قلوب أفرادها ولا عطف. وتألم للنساء الشريفات اللواتي دفعن الى الموت وهنَّ في أزرى حالة . ورفع يده الى السماء راجياً من الله تعالى أن يُسلّط على الأعداء عذابه ونقمته :

ناديت ، والسبي مهتوك يجرهم ۝ إلى السّفاحِ من الأعداءِ دعار

وهم يساقون للموت الذي شهدوا ۝ النار يارب نصلاها ولا العار

ولسعدي الشيرازي (ت ٦٩١هـ) قصيدة جيدة في بضعة وتسعين بيتاً باللغة العربية رثى بها الخليفة المستعصم بالله ، وبكى بدموع غزار على بغداد حاضرة العالم الاسلامي آنذاك ، أولها : (٢)

حبست بجفني المدامعَ لاتجري ۝ فلما طغى الماء استطال على السكر

نسيم صبا بغداد بعد خرابها ۝ تمنيت لو كانت تمر على قبري

لأن هلاك النفس عند أولي النهى ۝ أحبُّ له من عيشِ منقبض الصدر

ان الشعر الذي قيل في رثاء بغداد كثير (٣) ، ونجد مثله في رثاء المدن الشامية التي خربت بيد التتر . فهذا ملكها الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد

(١) النجوم الزاهرة ٧: ٥١ ، شذرات الذهب ٥: ٢٧٢

(٢) متنبي وسعدي ص ٩٢.

(٣) تنظر قصائد الشعراء : محمد بن الحسين المعروف بابن الشروي ، وياقوت بن عبد الله المستعصمي ، وعلي بن محمود بن مسعود السنجاري (عيون التواريخ ص ١٤٠ – ١٤٢)

وكان شاعراً – يؤخذ سنة ٦٥٩هـ أسيراً مع جميع اقاربه وأتباعه ، وتضرب أعناقهم بالسيوف . وقد قال الأبيات الآتية حينما مروا به على حلب ، وهي خاوية على عروشها ، وألسنة النيران تعمل في بيوتها المهدمة (١) :

يعزُّ علينا أن نرى ربعكم يبلى وكانت به آيات حسنكم تُتلى
أدور بعيني نحوكم في دياركم وأكثر فيها النوح كالفاقد الثكلى
أأحبابنا والله ماقلت بعدكم لنائبة الأيام رفقاً ولا مهلا

وبقيت آثار النكبة التي ابتلي بها المسلمون عامة ، والعرب خاصة ، ماثلة للعيان إلى زمن طويل ، ولعل أكثرهم تأثراً بذلك ، هو علاء الدين علي الأوتاري (ت٧٢٤هـ) الذي نظم قصيدة طويلة حينما شاهد الخراب والدمار الذي خلفه التتر في دمشق ، أولها(٢) :

لكَ علمٌ بما جرى ياسهادي من جفوني على افتقاد رقادي
وحبيب العين ، الرقاد جفاها مذ رآها خليفةَ الأنكاد

وهي قصيدة محزنة ، تنقل لنا مادهى الناس الآمنين في دمشق من قتل ونهب وهتك ، وما أصاب الدور والقصور من هدم واحراق :

طرقتهم حوادث الدّهر بالقتـ ـل ونهب الأموال والأولاد
وبنات محجبات عن الشمـ ـس تناءتْ بهنّ أيدي الأعادي
وقصورٍ مشيّداتٍ تمضّت في ذراها الأيام كالأعياد
وبيوتٍ فيها التلاوة والذكـ ـر وعالي الحديث بالإسناد
حرّقوها وخرّبوها وبادتْ بقضاء الإله ربِّ العباد

إنّ آثار هذا الغزو بقيت عالقة بالأذهان ، تثير بين الحين والآخر الأشجان والاحزان ، وعلى مرّ العصور والأزمان ، تهزُّ الكارثة الشعراء كلما سمعوا

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ٤٦٨ .
(٢) نهاية الأرب ٥ : ٢٢٧

بها ، أو رأوا معالمها ، أو قرأوا حوادثها المثيرة ، ووقائعها المؤلمة (١) .

ومن الأغراض المهمة التي تطالعنا في شعر هذه الحقبة الغزل ، الذي أفرد له الشعراء القصائد والمقطوعات ، واستهلوا به النظم في فنونه المختلفة. ومما يلفت النظر في هذا اللون من الشعر عودة الضمير إلى المذكر، وربما كان احتجاب المرأة ، وحجرها في دارها ، وعدم السماح لها بمخالطة الرجال ومجالستهم حتى المقربين منها منع الشعراء التغزل بها صراحة ، حفظاً لسمعتها وخشية من أهلها ، فاتخذوا الغزل بالمذكر وسيلة يلمحون به لحبيباتهم عن شوقهم وودّهم لهنّ .

إن الغزل بالمذكر يتناول وصف الغلام في أعضائه كما توصف المرأة في قدها وخدها وخصرها وردفها وثناياها وشعرها وعينيها ، حتى في غنجها ودلالها ، ووصفَ الشعراء الوجدَ والهيامَ والترصدَ واللحاق كما وصفها المتيمون في حب النساء. وافتتنوا بحسن منظره ورُوائه وسحر طرفه ومبسمه كما يفتتن الرجل بالمرأة الجميلة الساحرة . إنهم تغزلوا بالمذكر ، ولكنهم لم ينحدروا إلى المعاني المبتذلة التي نجدها عند أبي نواس وأبي الحسن السلامي والخبز ارزي وابن حجاج وابن سكرة الهاشمي . فهذا ابن نجا الضرير الإربلي (ت٦٦٠هـ) يبث شكواه من الحبيب الذي أصمّ اذنيه وكأنه لايسمع بعد أن وقع أسير سجنه الذي لايبرح عنه ، فالبغض سجيته والقسوة طبيعته وقد نفد صبره وتزاحم وجده (٢) :

تذللتُ ، لو أنّ التذلُّلَ ينفــع
وأفرطت في الشكوى لو أنكَ تسمع

وأمسي خضوعي للحبيب سجيتي
وهل نافعي للحبّ أنيَ أخضع

(١) ينظر بحثنا من آثار الغزو التتري في الأدب خلال القرنين السابع والثامن للهجرة المنشور في مجلة آداب الرافدين ، العدد ١٢ ، سنة ١٩٨٠ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ٥٠٤

ومن عَجَبٍ أني بحبكَ مولـعٌ
وأنتَ ببغضي والقطيعةِ مولـع

نصيبكَ مني الحبُّ والوصل كلّـه
ومنكَ نصيبي البغض والهجر أجمع

فؤادكَ مما بي من الشوقِ فـارغٌ
وقلبي ملآنٌ من الحزنِ موجـع

ووجدي وصبري في هواكَ تخالفـا
فوجدي مقيمٌ واصطباريَ مـودع

والهجاء من الموضوعات التي نلقاها في هذا العصر ، والملاحظ أن بعضه يتناول العرض وقذف المحصنات والسب والشتم الرخيص الذي تمجّه الأذواق ، وبعضه الآخر فيه شيء من الهزْل والسخرية ، وتصوير المهجو بشكل مضحك ، أو نعته بنعوت مشينة في عرف المجتمع مثل الغدر والبخل والحمق وما شابه ذلك . قال سليمان بن بنيمان (ت٦٨٦هـ) في هجاء الشاعر شهاب الدين التلعفري الذي قامر بثيابه وخفافه (١) :

مارأينا ولا سمعنا بشيـخٍ قبلَ هذا مقامرٍ بالخفافِ
يدعي نسبةً إلى آل شيبـا نَ وتلكَ القبائلِ الأشـرافِ
مثل نجدٍ لو استطاعتْ لقالتْ ليس هذا الدّعيُّ من أكنافـي
فابسُطِ العذرَ في هجاءِ رقيـعٍ عادلٍ عن طرائقِ الإنصاف

لم يسمع — كما يدّعي — ولم ير مثل هذا الشيخ الذي قامر بكل شيء حتى خفافه التي تحميه من أذى الحفاء . ويسخر من انتمائه إلى بني شيبان ، ويأنف من أن يكون منهم ، وهو رقيع مبتذل ، يستحق الهجاء .

وللوصف في شعر هذا العصر نصيب وافر (٢) ، وقد جاء قسم منه في

(١) فوات الوفيات ٢ : ٥٧
(٢) ينظر (اتجاهات الشعر العربي في العراق) ٢٧٦ – ٢٨٠ .

قصائد ومقطوعات مستقلة ، وقسمه الآخر ضمن الأغراض الأخرى . ونلمح في أوصاف الشعراء ، لاسيما في وصف الطبيعة ، مزجاًبين المشاعر والمشاهد مثل قول صفوان بن ادريس (ت٥٩٨هـ) :

جاد الرُّبى من بانةِ الجرعاءِ نوآن من دمعي وغيم سماءِ
ياليت شعري ، والزمان مُنَقّلٌ والدَّهر ناسخُ شدَّةٍ برخاءِ
هل نلتقي في روضة موشيّةٍ خفّاقةِ الأغصان والأفياءِ
وجرتْ ثغور الياسمين فقبّلتْ عني عذارَ الآسة الميساءِ (١)

ومن الشعراء مَن وصف المدن الجميلة التي تحتضنها الطبيعة الخضراء الزاهية ، مثل قول عائشة الباعونية (ت٩٢٢هـ) في وصف مدينة دمشق(٢) :

نَزِّه الطرف في دمشق ففيها كلّما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنة فتأمّلْ كيف تجري من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر أشرقت من وجوهها الأقمار
وتناغيك بينها صارخات خرصت عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال وقصور مُشيّدة وديار

ويدعو سليمان بن بنيمان إلى شرب الخمرة في أحضان الطبيعة ، وطرح الهموم ؛ لأن الجو طاب بمجيء أيلول ، والكأس المترعة تحاكي الشمس في بريقها ، والبدر الجميل قد أسفر عن وجهه النير ، والأرض قد زهت بحلتها البديعة وهي مطرزة بأزهارها الأنيقة (٣) :

اشرب ، فشربك هذا اليوم تحليل وانفِ الهمومَ فقد وافاك أيلول
أما ترى الشمس وسطَ الكأس طالعة منيرةً وأنطاق البدر محلول

(١) مطالع البدور ١: ١١٨ .

(٢) في الادب الاسلامي، فصولي البغدادي ص ١٦

(٣) فوات الوفيات ٢: ٥٨ .

والأرض قد كسيت بالغيث حلتها   وناظر الروضِ بالأزهار مكحول

لم يترك الشعراء شيئاً وقعت أعينهم عليه إلاّ وصفوه ، من ذلك قول أحدهم في وصف فانوس (١) :

انظرْ إلى الفانوس تلقَ متيماً   ذرفتْ على فقد الحبيب دموعُه
أحيا لياليه بقلبٍ مضرَمٍ   وتعدُّ من تحت القميصِ ضلوعه

وقال شهاب الدين ابن الخيمي (ت٦٨٥هـ) في سبحة سوداء (٢) :

وسبحةٍ مسودّةٍ لونُها   يحكي سوادَ القلب والناظر
كأنني عند اشتغالي بها   أعُدّ أيامكَ يا هاجري

ووصفَ أبوحيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) التمساح بقصيدة طويلة ، أولها(٣)

وخلْقٍ غريبِ الشكلِ في مصرَ ناشيء
وما هو في أرضٍ سوى مصرَ يوجد
هو السَّبُع العادي بنيلِ صعيدِها
يقافص من للماءِ في النيل يقصد (٤)
ويخطفُه خطفَ العُقابِ لصيدِها
ويفصلُه عُضواً فعضواً ويزرَد
وما من شُخوصِ النيلِ خَلْقٌ له يسدٌ
ورجلٌ سواه وهو في البرِ يصعد
وربّما يلقى لدى البر كاسراً
ويجري كمثلِ الطرفِ أو هو أزيد

---

(١) الكشكول ٢ : ١١٠

(٢) فوات الوفيات ٣ : ٤٢٤

(٣) ديوان ابي حيان الأندلسي ص ١٥٠

(٤) تقافص : اشتباك وتجمع .

لـه ذنـبٌ مُـرخىً طويـلٌ يُقيمُـــه
يلفُّ به من كان في الناسِ يفقـــد

ومن الألوان الشعرية التي تلاقينا في دواوين الشعراء وكتب الأدب ، الفخر والحماسة اللذان قيلا زمن المعارك التي دارت بين المسلمين والتتر ، أو بين المسلمين والصليبيين ، أو بين الأسر الحاكمة آنذاك ، مثل قول صفي الدين الحلي حينما قتل خاله وأخذ بثأره (١) :

سلي الرماحَ العوالي عـن معاليـنـــا
واستشهدي البيضَ هل خاب الرجا فينا
إنا لقـومٌ أبـتْ أخلاقنـا شرفـــاً
أن نبتدي بالأذى مـن ليس يؤذينـــا
بيـضٌ صنائعنا ، سودٌ وقائعنـــا
خضرٌ مرابعنـــا ، حمرٌ مواضينـا
لايظهـر العجز منا دونَ نيل منـــىً
ولو رأينا المنايـا في أمانينـــا

وهناك شعر في الخلاعة والمجون ، أقبل على نظمه فريق من الشعراء ، مزّقوا ستر العفاف ، وساروا في درب الغواية والرذيلة ، من هؤلاء علي بن عبد العزيز البغدادي (٢) (ت٦٨٤هـ) ، وشرف الدين بن اسد(٣) (ت٧٣٨هـ)

أما شعر الزهد والتصوف فكان رائجاً ، وقد فزعَ الشعراء إلى رحابه ليكشف الله عنهم الكرب والبلاء (٤) . مثل قول عماد الدين بن الحسن البغدادي المعمار (ت٧١٢هـ) :

(١) ديوان صفي الدين الحلي ص ٢٠
(٢) فوات الوفيات ٣: ٣٤ .
(٣) كنز الدرر ٨: ٣٩٢ – ٣٩٩.
(٤) ينظر الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٣٥٨ – ٤٣٨ ، اتجاهات الشعر العربي في العراق من سنة ٦٥٦هـ حتى سنة ٨٠٠هـ ص ٧١-١٠٩.

توكل على اللهِ جلَّ اسمه ولا ترجونْ سواه تعالى
فكل امريءٍ يرتجي غيره لكشف الملمات يرجو المحالا(١)

وقول صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت٧٣٩هـ) :

لاترج غيرَ اللهِ سبحانه واقطع عُرى الآمال من خلقه
لاتطلبنْ الفضلَ من غيره واضننْ بماءِ الوجه واستبقهِ
فالرزق مقسومٌ وما لامريءٍ سوى الذي قُدِّر من رزقهِ
والفقر خيرٌ للفتى من غنى يكون طول العمر في رقّهِ(٢)

ونجد مثل هذه المعاني التي تدور في فلك الفضيلة ، وتدعو الى الاخلاق النبيلة ، في شعر الحكمة مثل قول عز الدين بن كمونة البغدادي (ت ٦٨٣هـ) :

صن العلمَ عن أهلِ الجهالة دائماً ولا توله من لايكون له أهلا
فيورثه كبراً ومقتاً وشرّةً ويقلبه النقصان من عقلهِ جهلا
فكن أبداً من صونه عنه جاهداً ولاتطلبنّ الفضلَ من ناقص اصلا(٣)

إن هذا اللون من الشعر أقرب مايكون الى النظم التعليمي ، وقلما يطول فيه نفس الشاعر ، وهو قليل الحظ من الجمال الفني والصياغة الجيدة (٤)

وثمة لون آخر شاع بين العامة والخاصة ، هو شعر الاحاجي والالغاز اتخذوه وسيلة للتسلية والتلهية ، والرياضة الذهنية ، مثل قول أحمد بن عبد الملك العزازي (ت ٧١٠هـ) في القوس والنشاب (٥) :

ما عجوزٌ كبيرةٌ بلغت عمـ ـراً طويلا وتتّقيها الرجال

---

(١) تلخيص مجمع الآداب ٧٣٥:٢/٤.
(٢) شذرات الذهب ٦ : ١٢١
(٣) تلخيص مجمع الآداب ١٥٩:/١/٤ .
(٤) ينظر اتجاهات الشعر العربي في العراق ص ٨٤ .
(٥) فوات الوفيات ١ :٩٧ .

قد علا جسمهــــا صغار ولم تشـ ـك سَقاماً ولا عَراها هزال (١)

ولها في البنين سهمٌ وقســـمٌ وبنوها كبار قَدْرٍ نبـــال

وبنوها لم يشبهوها ففي الام مِ اعجوجاعٌ وفي البنين اعتدال

ان شعر هذا العصر – كما لاحظنا – يتراود بين مستويين متناقضين ، أحدهما – وهو قليل – رصين ، حافظ على الصناعة القديمـة وراعى مقوماتها واصولها . وثانيهما – وهو الكثير – ضعيف ، ظهرت فيه هلهلة البناء والتركيب ، وافتقر الى الابداع والابتكار إن هؤلاء الكثرة لم يكونوا بالدرجة الكافية من المستوى اللغوي والادبي الذي كان عليه شعراء العصر العباسي أمثال بشار بن برد وأبي نواس والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري والشريف الرضي ... ومن هنا كان الضعف واضحاً في أساليبهم ، ومثال ذلك قول البوصيري من قصيدة طويلة رفعها الى الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم (٢) :

اليك أشكو حالنـــا ، اننا عائلة في غايــةِ الكثــرهْ

أحدّثَ المولى حديثاً جـــرى لي معهـــم بالخيط والابره

صاموا مع الناسِ ولكنّهـــم صاروا لمـــن أبصرهم عبره

فهذه الابيات تنطق بالضعف ، وخمود العاطفة ، حتى بدت وكأنها حديث عادي من أحاديث العامة أو الشحاذين .

ونجد ضعفاً في أساليب الكثيرين الى جانب ضعف الالفاظ والتراكيب وقد جاء ذلك من عجزهم عن التصرف في اللغة تصرف المالك لزمامها ، المتمكن من دقائق أسرارها . وقد أخفى بعضهم هذا الضعف بثوب الصناعة اللفظية والمحسنات البديعية . ومما يلفت النظر أنهم كانوا يكثرون من استعمال ،

---

(١) الصغار : الذل .

(٢) ديوان البوصيري ص ١١٧ .

التورية ، ويدعون أنهم أول من تنبه الى روعتها ، من ذلك قول سراج الدين الوراق (ت ٦٩٥هـ) في رجل اسمه عرفات (١) :

اطنبوا في عـــرفاتٍ فغـــدوا   يتعاطونَ له حـــسن الصفات
ثم قالوا لي : هـــل وافقتنـــا   قلت : عندي وقفـــة في عرفات

ان هذا الشعر بعيد عن الطبع والذوق العربي الاصيل ، ومن أمثلة الشعر المتكلف المثقل بالجناس قول شهاب الدين التلعفري (ت ٦٧٥هـ) :

انت خالٍ مما يقاسيه قلبـــي   من غريرٍ له على الخدِّ خـال
كلّما عزَّ ، زادَ ذلّي وحالتْ   لـيَ فيه مـــع الزمان الحال(٢)

وقول صدر الدين بن الوكيل (ت ٧١٦هـ) :

اعتنـي على ما دهاني اعتنـــي   فاني بليت بظبـــي أغـــن
جنى إذ جنيت جنًى وجنتيـــهِ   فباللحظِ يجني وباللحظ أجني(٣)

واعجب الصفدي ببيتين للشاب الظريف (ت ٦٨٨هـ) ، فيهما تلاعب بالجناس وهما :

يابأبي معاطف واعيـــــن   يصول منها رامـــحٌ ونابـــل
فهـذه ذوابلٌ نـــواضـــر   وهذه نواظـــرٌ ذوابـــل

قال : «هذا من أعلى طبقات هذا النوع ،لانه رد العجز على الصدر بألفاظه مع أختلاف المعنى ، وقلت أنا في هذا النوع :

أضـاعَ نسكي عـذار مسكـي   فكيف تركـــي لحاظ تـركي
قد شـك قلبي برمحِ قـــد   قدَّ فـؤادي بغيـــر شـك(٤)

(١) خزانة الأدب الحموي ص ٣٤٧ .
(٢) الديوان ص ٣٢ .
(٣) تتمة المختصر في أخبار البشر ٢ : ٣٧٨ .
(٤) الغيث المسجم ١ : ٢٠٣ . وينظر ديوان الشاب الظريف ص ٢١٤ .

ومن الكتابة قول شمس الدين الكوفي (ت ٦٧٥هـ) :

أسكنته ربعَ الغرامِ فيـــا له من ساكنٍ لايستطيع حراكا (١)

ومن الامعان في الصنعة، والاغراق في التلاعب بالكلمات نقرأ أبيات ابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ) التي يتغزل فيها بالمذكر، مستخدماً ألفاظاً مصغرة (٢) .

طريْفي من لُيَيْـــلات الهُجير مقيـريح الجُفَيْـن من السهير
نُويريُّ الخُـديد كـوى قليبي فصحت مـن الحُريق أبانويري
مُسيبيل الشُّعَيـر علـى كُفَيْـل يذكرنـــا مُويجاتِ البُحـيرِ
حُويجبُه القُويس له سُهَيْــم مُويضٍ في القُليـبِ بلاوتيرِ
لثمت خُديده فجرى دميعـي فمـا أحـلى الزُهيرَ على النُهيرِ
رقيقٌ خصره ولــه قُلَيْنـبٌ شديد قُسَيوةٍ مثــل الحُجير
شُهير وصَيْله عنـــدي بيـوم ويوم هُجيرهِ مثل الشُهيــرِ

كم أتعب ابن حجة الحموي نفسه في هذه الأبيات التي تفتقر إلى الحس الشعري ؟! وكم كدَّ ذهنه في ايجاد كلمات تلائم الوزن والقافية؟! إنه كما يبدو أراد أن يبين حذقه في التلاعب اللفظي. وأراد بعضهم أن يضفي على شعره هالة من الحسن والبهاء والرفعة فالتجأ إلى القرآن الكريم واقتبس منه آيات وضمنها هذا الشعر، مثل قول ابن نُباتة المصري (٣) (ت٧٦٨هـ) :

وأغيدَ حارتْ في القلوب لحاظُه وأسهرتِ الأجفان أجفانه الوسنى
أجلْ نظـراً في حاجبيه ولـحظه ترَ السحرَ منه «قاب قوسين أو أدنى»

والعبارة الأخيرة مقتبسة مـن آية كريمة في وصف رحلة الرسول — صلى الله عليه وسلم — في الاسراء والمعراج، وما وصل اليه من التكريم

(١) فوات الوفيات ٤ : ١٠٣ .
(٢) الكشكول ٢ : ٣٧٨ .
(٣) الديوان ص ٥٣٤ .

والتعظيم في رحاب الله عزّ وجلّ، وفي كنفه. وهذا أمر يبعد عن مناسبة الأبيات السابقة وفكرتها ،ولا يليق بمقام الله ورسوله أن تعقد الموازنات بهذا الشكل البعيد عن طبيعة الأشياء وأقدارها.

وأكثر الشعراء من اقتباس الحديث الشريف بأسلوب لايكاد يختلف عن أسلوب الاقتباس من القرآن الكريم من ذلك قول شهاب الدين التلعفري (ت٦٧٥هـ) مستخدماً مصطلحات في الحديث (١):

ولابَرِحَ الصّبا يروي صحيحاً حديث رياضها، وبها اعتلال
منازل للصبّا مازال شملي له فيها بمن أهوى اتصال

فقوله: «يروي صحيحاً» يشير إلى رواية الحديث الصحيح، وقوله: «بها اعتلال» إشارة إلى العلم الذي عرف بعلل الحديث، وهو واحد من العلوم المعروفة المتعلقة بدراسة الحديث واوجه صحته أوضعفه وكيفية التثبت من ذلك بالطرق العلمية الصحيحة.

وكان للشعراء آنذاك ولع في الأقتباس من الأمثال. قال الصفدي معلقاً على المثل المشهور «سبق السيف العذل»: فقد استعمله الشعراء كثيراً، وأحسن مافيه مانقلته من خط السراج الوراق له (ت ٦٩٥هـ):

قلت اذ جرَّدَ لحظاً حدُّه يُدني الأجَل
ياعذولي كُفَّ عني سبقَ السيف العَذَلْ

وقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي (ت ٦٨٠هـ):

ياغُصُناً قد طابَ لي منه الجنى وياغزالاً لذَّ لي فيه الغَزَلْ
طرفُكَ قبلَ العَذْلِ قد أبادني فما احتيالي سبقَ السيف العَذَلْ (٢)

وعلى النهج نفسه كان اكثار الشعراء من تضمين مقاطع وأبيات لشعراء

---

(١) الديوان ص ٣٥ .

(٢) الغيث المسجم ٢ : ٣٧٤ .

سابقين، وقد أشار الشاعر مجير الدين بن تميم (ت ٦٨٤هـ) الى ذلك: (١)

أطالع كلَّ ديـــوان اراه ولم أزجُر عن التضمين طيري
أضمن كل بيتٍ فيه معنىً فشعري نصفه من شعر غيري

ومن افتتان الشعراء في هذا العصر بالتضمين نسمع قول صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ) يخاطب ابن نباته المصري : (٢) .

أفي كلِّ يومٍ منكَ عتبٌ يسوؤني
(كجلمودِ صخرٍ حطه السيل من علِ)
وترمي على طولَ المدى متجنباً
(بسهميكَ في أعشارِ قلبٍ مُقتلِ)
فأمسي بليلٍ طالَ جنح ظلامه
(عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي)
وأغدو كأن القلب من وقدةِ الجوى
(اذا جاشَ فيه حميه غلي مرجلِ)
تطير شظاياه بصدري كأنهما
(بأرجائه القصوى أنابيش عُنصُلِ)
وسالت دموعي من همومي ولوعتي
(على النحرِ حتى بلَّ دمعي محملي)
ترفقْ ولا تجزعْ على فائتِ الوفا
(فما عند رسمِ دارسٍ منْ معول)

فأجابه ابن نباته بقوله:

فطمستَ ولائي ثم أقبلتَ عانياً
(أفاطم مهلاً بعض هذا التدللِ)

---

(١) شذرات الذهب ٥ : ٣٨٩ .
(٢) معاهد التنصيص ٤ : ١٥٨ . وينظر ديوان ابن نباتة المصري ٣٩٢ .

بروحي أَلفاظ تعرض عَتْبـــــهُـــا
(تعرُّض أَثناء الوشاح المفَصـــــــلِ)
فأحييتَ وداً كان كالـرسم عافـيـــاً
(بسقطِ اللوى بينَ الدَّخُولِ فحوملِ)
تُعَــفي رياح العذل منــك رقومَـــــه
(لما نَسَجَتْها من جَنُوبٍ وشمـــألِ)
نــعم قــوضَتْ منك المودة وانقضــتْ
(فيا عجباً مــن رحلـها المتحمـــــلِ)
أمولاي لاتســلك من الظـلـم والجـفـا
(بنا بطنَ خبتٍ ذي قفاف عقنقـــلِ)
ولا تنسَ مني صُحبــةً تصدع الدُّجـى
(بصبحٍ وما الاصباح منك بأَمثـــل)
وهي طويلة ، يقول في آخرها :
فدونك عَـتبـي اللفــظ ليسَ بفاحشٍ
(اذا هي نصته ولا بمعطــــــــلِ)
وعادات حــبَ هن أَشـهـر فيــك من
(قــفـا نبــك من ذكرى حبيب ومنزلِ)

فهاتان الصورتان الشعريتان تنطقان عن التكلف المقيت في التضمين، والصنعة اللفظية التي أضفت على الأبيات ثقلاً ومجافاة للطبع والذوق الأدبي إلى جانب الاختلال الواضح في المعنى ، وعجز الشاعرين عن تحقيق التوازن بين الأفكار التي يعالجانها ويعبران عنها.

ولم يكتف شعراء هذه الحقبة بالاغراق في الصنعة وتقصد البديع ، وانما ذهبت عنايتهم بهذا الاتجاه الى ابعد حدود المبالغة في هذه الصنعة ، فكانت في أشعارهم ألوان اخرى من البديع مثل الجناس الغريب والملفق، والقصيدة

المعجمة والمهملة، والحروف الموصولة والمقطعة. والى جانب هذا فقد عرض الشعر في العصور المتأخرة اشكالا مستحدثة كالتأريخ، والتشجير، وذوات القوافي ، ومحبوك الطرفين ، والشعر الهندسي، وغير هذا كثير (١) .

(١) ينظر «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني» ص ١٦٩ - ٢٢٨ .

الفصل الثاني
الفنون الشعرية المستحدثة

سارت فنون الشعر العربي في العصور المتأخرة في اتجاهين بارزين ، أحدهما محافظ في منهج القصيدة بناءً ولغةً وموسيقى. وثانيهما مستحدث انبثق من البيئة الجديدة التي أختلطت فيها أجناس متباينة، وثقافات متنوعه، وعادات مختلفة ، وطبائع متميزة .

ومن أبرز الفنون الشعرية المستحدثة في هذه البيئة : هي : الدوبيت ، والموشح ،والزجل والمواليا ، والكان وكان، والقوما، والبند. ومن أوائل من اهتم بهذه الفنون ، ماعدا البند، صفي الدين الحلي. قال (١) : «فاني كنت اضفت الى ديوان اشعاري فني الموشح والدوبيت لتحليهما بالاعراب ونسجهما على منوال لفظ الاعراب، وأعريته من الفنون الأربعة التي لحنها إعرابها، وخطأ نحوها صوابها، وهي: الزجل، والمواليا والكان وكان والقوما . فهي الفنون التي اعرابها لحن ، وفصاحتها لكن، وقوة لفظها وهن، حلال الأعراب بها حرام، وصحة اللفظ بها سقام، يتجدد حسنها اذا زادت خلاعة، وتضعف صنعتها اذا اودعت من النحو صناعة، فهي السهل الممتنع ، والأدنى المرتفع».

ان ضعف المستوى اللغوي والثقافي في جزء كبير من المجتمع في العصور المتأخرة دفع الكثيرين من الشعراء الى النظم في الفنون السابقة ، وهي فنون لاتلتزم بعمود الشعر المعروف لاسيما مايتعلق بالأوزان ، واستخدام الألفاظ العامية ، ومخالفة القياس الصرفي او اللغوي ، خاصة في الزجل والمواليا والكان كان والقوما. وسنحاول شرحها وتوضيحها واتيان الأمثلة عليها .

---

(١) العاطل الحالي ص ٦ . وينظر المستطرف في كل فن مستظرف ٢ : ٢٣١ .

الدوبيت :

الدوبيت لفظ فارسي معناه «البيتان» ، وهو قالب شعري ظهر في المشرق مثل ظهور الموشح في الأندلس والمغرب. وقد سماه العرب بأسم «الرباعي» لأنه مؤلف من اربعة مصاريع ، وسموا الواحدة منه رباعية، يراعى في الأول والثاني والرابع منها على الأقل قافية واحدة، ووزن الدوبيت هو:

فعْلُنْ مُتفاعلنْ فعولنْ فَعِلُنْ   فعلُنْ متفاعلنْ فعولنْ فَعلُنْ

ويطرأ على هذا الوزن زحافات كثيرة ، ويتميز الدوبيت من غيره لتحليه بقواعد الاعراب وموازين الصرف .

والدوبيت ــ كما يقول الدكتور مصطفى جواد(١) ــ من أوزان الشعر وفنونه الجميلة، وإن مخترعه أبو عبد الله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن آدم الشاعر الفارسي السمرقندي الروذكي، منسوب الى روذك من نواحي سمرقند المتوفى سنة ٣٢٩هـ . وتبعه شعراء كثيرون ، وذاعت شهرة بعضهم، أمثال عمر الخيام(ت قبل سنة ٥٣٠هـ) وأوحد الدين المعروف بالأنوري (ت ٥٨٧هـ) ، وعبد الرحمن الجامي (ت ٨٩٨هـ) .

وانتقل الدوبيت الى العراق والشام والبلاد العربية الأخرى ، وقد ذكر مصطفى صادق الرافعي (٢): «ان هذا النوع ــ أي الدوبيت ــ لم يكن في العربية قبل القرن السابع»، وحجته في ذلك قوله : «لأننا لم نجده في شعر أحد قبل ذلك الزمن ، ولا وجدنا اشارة اليه،ولم نجد للشعراء ولعا به الا في اواخر تلك المئة وما بعدها». وهذا القول يجانب الصواب ، حيث أحصى الدكتور كامل مصطفى الشيبي نيفاً وعشرين شاعراً من القرنين الخامس والسادس نظموا في الدوبيت (٣).

(١) الرباعيات في الأدب العربي ، مجلة الغري ، العدد ١٥ لسنة ١٩٤٤ ، ص ٨٧٩- ٨٨٢ .

(٢) تاريخ آداب العرب ٣: ١٧٢ .

(٣) ديوان الدوبيت في الشعر العربي ص ١٣٧ - ٢٠١ .

أما الدكتور ابراهيم انيس فيقول(١): «الحق ان هذا الوزن لم يشع شيوعاً كافياً في اللغة العربية حتى يصبح مألوفاً بين الناس، بل لم يرو ان شاعراً مشهوراً قد اختصه بنصيب وافر من شعره، ولهذا لم ترو له الا مقطوعات قصيرة قليلة، واغلب الظن ان الناظمين قد حاولوها للتفكه واظهار البراعة والمهارة في النظم من أي وزن،حتى ولو كان أجنبياً عن أوزان الشعر العربي» وهذا القول غير دقيق ، ومن يرجع الى ديوان «الدوبيت» الذي جمعه الدكتور كامل مصطفى الشيبي يجد عدداً ضخماً للدوبيتات ولشعراء معروفين أمثال شهاب الدين السهروردي ، والعماد الأصبهاني، وأبن النبيه المصري ، وفتيان الشاغوري، وحسام الدين الحاجري، وابن مطروح، والبهاء زهير، وشهاب الدين التلعفري ، والشاب الظريف، وابن دقيق العيد، وابن الوردي وصفي الدين الحلي، وابن حجة الحموي، وبهاء الدين العاملي...

وكان الدوبيت وعاءً لعدد من أغراض الشعر ، فان العماد الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ) نظم ديوان شعر صغيراً لنور الدين محمود جمعيه دوبيتات في معنى الجهاد وصلت الينا منه نماذج قليلة مثل قوله(٢):

أَقسمت سوى الجهادِ مالي أَرَب والراحة في سواه عندي تَعَب
إلاّ بالجدِّ لايُنال الطلـــب والعيش بلا جدٍّ جهادٍ لَعب

وله أيضاً دوبيتات على الحروف أغلبها في الغزل وصلت إلينا كاملة(٣).

ونظم فتيان الشاغوري (ت٦١٥هـ) ديواناً خاصاً في الدوبيت رآه ابن خلكان ونقل منه قوله (٤) :

الورد بوجنتيكَ زاهٍ زاهـرْ والسحر بمقلتيكَ وافٍ وافر
والعاشق في هواكَ ساهٍ ساهرْ يرجو ويخاف ، فهو شاكٍ شاكر

(١) موسيقى الشعر ص ٢١٧ .
(٢) ديوان عمادالدين الأصبهاني ص ٧٦ .
(٣) نفسه ص ٤٥٩ – ٤٧٤ .
(٤) وفيات الأعيان ٤: ٢٦ .

وللقاضي نظام الدين محمد بن اسحاق الأصبهاني (ت. ٦٨٠هـ) ديوان بعنوان «نخبة الشارب وعجالة الراكب» فيه خمسمائة دوبيت ، منه قوله: (١)

قالوا: أفضحتَ غادةً تهواها ... ماعلمكَ في افتضاح مَنْ تهواها؟
ماالحيلة؟ ردع طيبها يفضحني ... كالوردةِ تُصحب الصبّا رياها!

وكان للغزل، ودواعي الغرام، ولواعج الصبابة والهيام، نصيب كبير من هذا اللون من النظم، مثل قول الشاب الظريف (ت٦٨٨هـ) :

قاسيتُ بكَ الغرامَ والهجرَسنين ... مابينَ بكاءٍ وأنينٍ وحنين
أرضيكَ وما تزداد إلاّ غضباً ... الله – كما أبلى بكَ القلبَ – يعين(٢)

وقوله :

ماناحَ حمام الأيكِ في الأغصان ... الاّ وتزايدتْ بكم أشجاني
عودوا لمعنى هجركم أسقمه ... فالصبُ بكم مضنى كئيب عاني(٣)

ومن جميل مانظم محمد بن محمد بن أحمد الكندي القوصي (ت ٧٢٤هـ) قوله:

ياغايةَ منيتي ويا مقصودي ... قد صرت من السّقام كالمفقود
ان كان بدتْ مني ذنوبٌ سلفتْ ... هَبْها لكريمِ عفوكَ المعهودِ(٤)

واشتهر صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ) بنظم الدوبيت، وله كتاب مطبوع بعنوان «العاطل الحالي والمرخص الغالي» عني فيه بفنون الشعر المستحدثة. ومن دوبيتاته اللطيفة:

هل تعلم ماتقوله الأطيار ... في الدوح اذا ما مالت بها الأشجار

---

(١) ديوان الدوبيت في الشعر العربي ص ٢٩٩ .

(٢) ديوان الشاب الظريف ص ٢٨٠ .

(٣) نفسه ص٢٧٥ .

(٤) الطالع السعيد ص ٦٢٣ .

ماالعيشة الاّ ساعةٌ ذاهبـــــةٌ   لاتبخلْ إنْ سختْ بها الأقدار(١)

وكان للمتصوفة المتأخرين حظ وافر من نظم الدوبيتات ، منهم أبو عبد الله محمد بن علي اليمني (ت٩٣٢هـ)، قال:

تغريد الورقِ في الدجى أرقنّـي   لما باتتْ تشدو بأعـــلى الفنـن
مالي سكنٌ أشكو اليه شجنـــي   حسبي ربي إن رمتشكوىالحزن(٢)

وقال فضولي البغدادي (ت٩٢٣هـ) :

الحمد لمن أنارَ قلبي وهَـــدى   والشكر لما فيه من الشوقِ بدا
ماأمدح واهباً سواه أبــــداً   لا أشرك في ثناءِ ربي أحدا (٣)

الموشح:

لون من ألوان الكلام المنظوم، ظهر في الاندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة، اخترعه محمد بن محمود القَبْرِي الضرير كما يرى ابن بسام (٤)، أو مقدَّم بن معافر الفريري في رواية ابن خلدون، (٥)وهو يختلف عن القصيدة فمن حيث الوزن تتفق الموشحات المنظومة بالفصحى في معظمها مع أوزان الخليل المعروفة، ولكنها قد تخرج في نماذج أخرى عن هذه الاوزان، لاسيما اذا كانت منظومة بالعامية أو مايقرب منها في إيثار التسكين فيعباراتها. وكذلك تخالف الموشحات قصائد الشعر بخروجها على مبدأ القافية الواحدة واعتمادها جملةً من القوافي المتناوبة والمتناظرة وفق نسق معين. واحتواء بعض أجزائها، خاصة الخاتمة على العبارة العامية .

كانت الموشحات في الاندلس ثمرة حياة الغنى والرخاء ، تلك الحياة

---

(١) ديوان صفيالدين الحلي ص ٥٥٠ .
(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص ١٨٧ .
(٣) كليات ديوان فضولي ص ٢٣٨ .
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١: ٤٦٩ .
(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ .

التي جنح الناس فيها إلى الترف واللهو والموسيقى والغناء والطرب إلى جانب روح التجديد التي سادت في المجتمع الذي تظلله حرية القول والعمل والحركة والابداع .

لم يعرف المشرق –وان كان مهد القصيد– الموشح الا في عهد متأخر ذكر أحد الباحثين أن الموشح نقل إلى المشرق في أخريات القرن السادس للهجرة (١)، وذهب آخر إلى أن ابن سناء الملك أول من أدخل هذا الفن (٢) إلى المشرق .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الموشحات انتقلت إلى المشرق بوساطة رحلات العلماء والادباء والفقهاء في نهاية القرن الخامس للهجرة، وبدأ الشعراء بالنظم على غرارها في مطلع القرن السادس للهجرة، وكانت مصر السباقة إلى ذلك ،لاسيما الاسكندرية ،ومن أبرز الشعراء الذين وصلت إلينا نماذج من موشحاتهم :علي بن عياد الاسكندري (٣) (ت٥٢٦هـ) وظافر الحداد الاسكندري (٤) (ت٥٢٩هـ) وابن قلاقس الاسكندري(٥) (ت٥٦٧هـ) وموسى بن علي الاسكندري (٦) (ت٥٧٢هـ).

وقد حاول المشارقة –بعد استيعاب الموشحات الاندلسية وحفظها– أن يظهروا مقدرتهم وكفاءتهم في هذا الفن الجديد، فنظموا فيه ، وأجادوا أيما إجادة ،وغيروا بعض صوره، وجددوا في ألوانه .وكان ابن سناء المُلك (ت٦٠٨هـ) أحد المعنين به، وله كتاب «دار الطراز في عمل الموشحات» وقد أورد فيه موشحات أندلسية إلى جانب موشحات من نظمه، وكأنه

(١) الأدب في العصر المملوكي ١ :٣٠٦ .
(٢) مقدمة دار الطراز في عمل الموشحات ص ١٠ .
(٣) الخريدة ، قسم مصر ، ٢ :٤٤ .
(٤) ديوان ظافر الحداد ص ٣٣٤ ، ٣٣٨ .
(٥) ديوان ابن قلاقس ١ :٨١ .
(٦) الخريدة ، قسم مصر ، ٢ :١١٣ .

أراد أن يثبت مقدرته فيه وتفوقه على أقرانه المغاربة، ومن محاولاته في هذا التفوق زيادة عدد أجزاء الموشح، لاسيما في الاقفال، حيث أوصلها إلى أحد عشر قفلاً في الموشح الواحد، وقد كان العدد المعروف في الموشح الاندلسي لايكاد يتجاوز سبعة أقفال .

ومضى الموشح المشرقي نحو الازدهار والتطور، وكثر عدد الوشاحين، نذكر منهم على سبيل المثال : ابن الدهان الموصلي (١) (ت٥٨١هـ) وأبا عثمان البُلّطي الموصلي (٢) (ت٥٩٩هـ) والقاسم بن القاسم الواسطي (ت٦٣٦هـ) وداود بن عيسى الايوبي (ت٦٥٦هـ) وابن زيلاق الموصلي (ت٦٦٠هـ) وأيدمر المحيوي (ت٦٧٤هـ) وشهاب الدين التلعفري (ت٦٧٥هـ) وتقي الدين عبد الله بن علي السروجي (ت٦٩٣هـ) وأحمد بن عبد الملك العزازي (ت٧١٠هـ) وابن دانيال الموصلي (ت٧١٠هـ) والسراج المحار الحلبي (ت ٧١١هـ) وصدر الدين بن الوكيل (ت٧١٦هـ) وابن الملحمي الواعظ الواسطي (ت٧٤٤هـ) وصفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ) وابن نباته المصري (ت٧٦٨هـ) ....

وتنقسم الموشحات بشكل عام من ناحية الاوزان إلى قسمين، منها ماجاء على أوزان أشعار العرب، ومنها ما لاوزن له، وهو كما يقول ابن سناء الملك (٣) «الكثير والجم الغفير، والعدد الذي لا ينحصر ، والشارد الذي لا ينضبط وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً يكون دفتراً لحسابها وميزاناً لأوتادها وأسبابها ، فعزّ ذلك وأعوز لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف». وقد حاول المستشرق الالماني « هارتمان » في دراسة لـه ارجاع أوزان الموشحات إلى١٤٦ وزناً أو بحراً مشتقة من بحور الشعر العربي الستة عشر،

(١) قال محقق ديوانه : «هو أول شاعر مشرقي عراقي نظم الموشحات حسب استقرائنا للشعر العربي في الشرق ، وحسب ما توصل اليه البحث» . ص ٢٧٠ .

(٢) ينظر مقالنا «أبو الفتح البلطي الموصلي» ، مجلة الجامعة ، العدد ٩ ، السنة ١٩٧٨ .

(٣) دار الطراز في عمل الموشحات ص ٤٧ .

غير ان هذه المحاولة تتسم بالتكلف في بعض جوانبها ، اذ هناك موشحات تشذ عن الاوزان التي ذكرها هارتمان ولا تخضع لها (١) .

لقد كانت الموشحات الأندلسية تتراود بين الفصحى والعامية، وقد تساهل عدد من الشعراء في هذه اللغة طالما كانوا يبغون إرضاء الأذواق العامة كما كانت ترضي الأغاني الشعبية هذه الأذواق . أما الموشحات المشرقية فكانت في الغالب تدور — وان لم تخل من اللحن — في تلك الأوزان العربية المعروفة، ويحسن بنا أن نورد هنا موشحة لنقف على تعاريف أجزائها، قال أحمد بن عبد الملك العزازي (٢) :

يا ليلةَ الوصلِ وكأسَ العُقارْ دونَ استتارْ علمتماني كيف خَلع العذارْ

اغتنم اللذاتِ قبلَ الذهاب
وجرَّ أذيالَ الصبا والشبابْ
واشربْ؛ فقد طابتْ كؤوس الشرابْ

على خدودٍ تُنْبت الجلنارْ ذاتِ احمرار طرزها الحسن بآس العذارْ (٣)

الراح لاشكَّ حياة النفوسْ
فحل منها عاطلاتِ الكؤوس
واستجلها بينَ الندامى عروسْ

تُجلَى على خُطابها في إزارْ من النُّضارْ حَبابُها قامَ مقامَ النثارْ (٤)

أما ترى وجهَ الهنا قد بدا
وطائرَ الأَشجار قد غَردا

---

(١) في الأدب الأندلسي للدكتور جودة الركابي ص ٣٠٢ .

(٢) المنهل الصافي ١ : ٣٤٤ ، فوات الوفيات ١ : ٩٨ ، عقود الآل في الموشحات والأزجال ص ٢٣ .

(٣) العقار : الخمر . خلع العذار : مجاز عن ترك الحياء ، يضرب للشاب المنهمك في غيه .

(٤) النضار : الذهب . الحباب : ما يعلو سطح الماء والكأس من الفقاعات . النثار : ما ينثر للعروس .

والروض قد وشّاه قطر الندى

فكملِ اللهو بكأسٍ تُدارْ على افترارْ مباسم النُّوار غب القطارْ (١)

فاجن بالوصل ثمارَ المنى

وواصلِ الكأسَ بما أمكننا

مع طيِّبِ الريقةِ حُلوِ الجنى

بمقلة أفتك من ذي الفقار ذاتِ احورار منصورةِ الاجفانِ بالانكسارْ (٢)

زار وقد حلّ عقود الجفا

وافترّ عن ثغر الرضا والوفا

فقلت والوقت لنا قد صفى

باليلةً أنعم فيها وزارْ شمس النهار حُييت من دون الليالي القصارْ

أجزاء الموشحه :

المطلع : اذا افتتح الموشح به سمي تاماً ، وان لم يستهل به سمي أقرع أي ليس في راسه شيء ، وموشحة العزازي السابقة تامة .

القفل : وهو يشبه المطلع في الوزن والقافية . والاقفال ليس لها عدد محدد،ولكن أغلب الموشحات لها خمسة أقفال، والقفل الواحد يتركب من جزأين فأكثر الى ثمانية أو عشرة ، وقد أوصله أبن سناء الملك الى أحد عشر .

الغصن : وهو القسم الواحد من المطلع والقفل والخرجة ، وقد يكون جزأين ، أو ثلاثة كما في موشحة العزازي ، وقد يكون أربعة .

الدور : ويأتي بعد المطلع اذا كان الموشح تاماً ، أو مباشرة اذا كان

---

(١) افتر : ضحك ، يقال : افتر ضاحكاً إذا أبدى أسنانه . النوار : الزهر ، أو الأبيض منه. القطار : جمع قطر أو قطرة ، يريد بعد المطر .

(٢) ذو الفقار : سيف لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

الموشح أقرع ، والحد الادنى له ثلاثة أقسام ، وقد يكون أربعة أو خمسة ولايتجاوز ذلك الا نادراً .

السمط : وهو القسم الواحد من الدور ، ويكون مفرداً كما في موشحة العزازي ، أو يكون من فقرتين أو ثلاث أو أربع .

البيت : وهو الدور مع القفل الذي يليه (١) .

ومن أبرز مايلاحظ في الموشح المشرقي التطور في الاغراض التي عالجها فالى جانب الغزل والمجون والخمر والمديح والهجاء والرثاء نجد موشحات في التصوف ، والمراسلة بين الادباء أو مايعرف بالاخوانيات.

أما من الناحية الفنية فانّ الوشاحين المشارقة أغرقوا في ضروب البيان والبديع ،لاسيما التورية ويذكر المؤرخون أعلاماً في فن التوشيح عرفوا باستعمالهم التورية ، منهم أبن نباتة المصري الذي أبدى براعة في استعمالها وتفنن في تحقيق الانسجام بين اللحن والغناء من جهة ، وبين الفاظ الموشحة من جهة أخرى (٢) .

لقد بقي المشارقة حاملين لواء التوشيح بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ. وتفننوا في الفاظه ومعانيه وصوره،وصاروا يعنون به في مجالس لهوهم وفرحهم ، وأثر ذلك عنهم ، وصار مستعملا شائعاً الى عهد قريب .

الزجل:

ولد الزجل في الاندلس في أواخر القرن الرابع للهجرة ، ونشأ فيها ، وتطور على أيدي زجالة مشهورين ، ولعل من أبرز من أسهم في افرازه من التوشيح في القرن الخامس الزجال المشهور أخطل بن نمارة ، حتى اذا جاء القرن السادس للهجرة، بلغ الزجل عصره الذهبي على يد أبي بكر بن قزمان (ت ٥٥٤هـ) شيخ صناعته وامام فنه ، ثم استمر تطوره في القرن

(١) ثمة اختلاف بين الباحثين في هذه التسميات ، فبعضهم يسمي الدور بيتاً .

(٢) ينظر «ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق» ص ٣٣٢ ، ٣٣٧ .

السابع للهجرة ، خاصة فيما يتعلق بجنوحه نحو التصوف والزهد بسبب ماحاق بالاندلس من المحن والمصائب والنكبات والنوائب .

وانتقل الزجل الى المشرق ، ودخل مصر قبل غيرها بحكم قربها من المغرب ، ثم أنتقل الى الاقطار العربية الاخرى ، لاسيما الشام والعراق . واول من عني به من المشارقة الشاعر المشهور صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) أذ جعله في مقدمة الفنون الشعرية غير المعربة في كتابه «العاطل الحالي ، والمرخص الغالي» وتابعه في هذا المجال تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) في كتابه «بلوغ الامل في فن الزجل» .

قال صفي الدين الحلي في مكانة الزجل بالنسبة الى الفنون الاخرى (١) . «هو أرفعها رتبة، واشرفها نسبة ، واكثرها أوزاناً ، وارجحها ميزاناً ، ولم تزل الى عصرنا هذا أوزانه متجددة ، وقوافيه متعددة ، ومخترعوه أهل المغرب ، ثم تداوله الناس بعدهم ، والزجل في اللغة «الصوت» يقال سحاب زجلٌ اذا كان فيه الرعد ، ويقال لصوت الاحجار والحديد والجماد أيضاً زجلٌ» .

وهذا الفن بعيد عن الاعراب ، يغلب عليه التسكين ، ويصلح للغناء، وينظم على بحور الشعر المعروفة الى جانب بحور أخرى ابتدعها الزجالة والشائع فيه أن يكون البيت من أربعة أشطر أو مصاريع الثلاثة الاولى من روي معين والرابع من روي مغاير له . ولكنه ملتزم في كل شطر رابع في القصيدة ويشيع الجناس عادة في القوافي الثلاث الاولى ، وقد ينظم الزجل أقفالا ، ولايزيد القفل الواحد عن بيتين في الغالب ، وربما يكون للبيت رويان ، أحدهما للصدر والآخر للعجز، وقد تسوده قافية واحدة(٢)

راج سوق الزجل في مصر ، وكثر الاقبال عليه ، ومن المشهورين فيه

---

(١) العاطل الحالي ص ٩ .

(٢) ينظر علم القافية للدكتور صفاء خلوصي ص ٨٤ .

شرف الدين بن أسد (ت ٧٣٨هـ) ، التقى به صلاح الدين الصفدي بالقاهرة فقال عنه (١) : «رأيته غير مرة بالقاهرة ، وانشدني له شعراً كثيراً من البلاليق (٢) ، والازجال والموشحات ، وغير ذلك ، وكان عامياً مطبوعاً ، قليل اللحن يمتدح الأكابر ، ويستعطي الجوائز» . ومن أزجاله اللطيفة قوله :

يامالك الحسنِ أرفقْ بالمستهام العليلْ
حياتُه قربكَ ولكنْ مايلتقي له سبيلْ

خُدّام حسنك كثيرٌ هُمْ سبحانَ مَنْ صورك
وصفُكَ جميلٌ ووجهُكَ صبيحٌ ما أزهرك
يا قوتٌ وجوهرٌ بثغرٍ ،ريحان عذاركَ شركْ

كافور خدّكَ وعنبر خالكَ أهاجوا الغليل
بمهجتي يامعيشق وصيّروني ذليلْ

سعيدٌ مسرورٌ مرشّدٌ رشيدٌ من قَدْرآك
مُقبلٌ عليه بعد هجركَ محسنٌ اليه بلقاكْ
مختصٌ بالوصلِ منك فايزٌ بمفتاحِ رضاكْ

يا نصرَ قلبِ المعنّى مغيثٌ كربي قليلْ
مالي شفيعٌ عند حسنكَ غير البكا والعويل

سرور قلبي إذا ما أتى بشير الرضا
والقاكَ في إقبالِ يا فاتن وأترك جميعَ مامضى
وأركب المسرّةَ وأسلك وسيعَ الفضا

---

(١) فوات الوفيات ٢ : ١٠٠ .

(٢) البلاليق : مفردها بليقة ، وهي منظومة زجلية ، لكنها أختلفت عند المصريين عن الزجل في موضوعها إذ اقتصرت على الموضوعات الخفيفة السائرة ، الفكاهية ، أو الساخرة ، وغالباً ما تكون اوزانها خفيفة على السمع واللسان (الأدب في العصر المملوكي ١ : ٣١٦)

وأصبح بقربكَ مفلح ،وبافتخاري أميلْ

نجاح أمري في شربةٍ من ريقك السلسبيل

صواب رأيٍ في عشقكَ يا أحسنَ العالميـنْ

دينارٌ منقوش حسنكَ ظهير ، عزيزٌ عن يقيـنْ

مثقالٌ من بعضِ عشقي يرجح على العاشقيـنْ

فاخرٌ بحسنك يامحفوظ ، أي ماملیح لك مثيل

فرقك منير ، وشعركَ سنبلٌ وخدك اسيل

قدُّكَ رشيقٌ ، وحُبّكَ مختارٌ دونَ الأنـامْ

نشركَ عنبرٌ وصندَل ، والوجه بدر التمامْ

بلالٌ أذّن بخدُّكَ : استيقضوا يا نيـامْ

فالراح في الكأس تجلى مع ظبي أغيد كحيلْ

واستغنموا لذّة العيش فالعمر ماهوطويل(١)

وممن برع في نظم الزجل أيضاً في الديار المصرية ابن النبيه المصري (ت ٦١٩هـ) ، والوزير محمد بن محمد بن علي (ت ٧٠٧هـ) ؛ وعبدالملك ابن الأعز الثقفي (ت ٧٠٧هـ) ، ومحمد بن عمر المعروف بابن المرحل (ت ٧١٦هـ) ، وابراهيم الحائك المعمار (ت ٧٤٩ هـ) .

وسرعان ماانتقل الزجل الى الشام، واستساغه العامة والخاصة، وعبروا به عن مشاعرهم وأحاسيسهم، وكثر عدد الزجالة، ومن أشهرهم شهاب الدين أحمد بن عثمان الأمشاطي (ت ٧٢٥هـ)، وعلي بن مقاتل الحموي (ت ٧٦١هـ) ، وابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) .

لقد نظم الأدباء الزجل الى جوار القصيد واستشهدوا به في تآليفهم ، حتى ان الشيخ شمس الدين بن الصائغ (ت ٧٧٦هـ) أورد في شرحه لبردة البوصيري الذي سماه «رَقْم البردة» شيئا من محاسن أزجال عصره. قال

(١) كنز الدرر وجامع الغرر ٨: ٢٩٣ .

ابن حجة الحموي (١): «ورأيت الشيخ شمس الدين بن الصائغ – رحمه الله – قد استشهد في شرح البردة الذي سماه بـ «الرقْم» بغالب اهل عصره فيما عرض من أنواع البديع حتى أورد لهم شيئا من محاسن الزجل».

ووصل الزجل الى العراق ، واقبل عليه الشعراء، ونظموا فيه. قال صفي الدين الحلي (٢): «ولأهل بغداد دون المشارقة أزجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم ، وجَري ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم كالإمالة والإدغام وتبديل حرف بآخر للتحسين،وغير ذلك، لايشاركهم فيها مشارك».

واشتهر عدد من الشعراء العراقيين في نظم الزجل ، ولم يتورع بعضهم من الأغراق في المجون والخلاعة والتهتك، مثل تقي الدين علي بن عبد العزيز البغدادي (ت ٦٨٤هـ) ، قال عنه ابن شاكر الكتبي (٣): كان من أظرف خلق الله تعالى ، وأخفهم روحاً .

ولصفي الدين الحلي أزجال لطيفة حاكى في بعضها أزجال المصريين والشاميين ، من ذلك قوله في مدح الملك الصالح شمس الدين بن غازي بن أرتق صاحب ماردين (٤):

أنتَ ياقبلة الكرامْ　　زينة المال والبنينْ　　الله يُعطيك

فوق ذا المقامْ

ويُعيدك على السنينْ

انت شامه بين الأنامْ　　الله يحرس شمائلك

ويؤيدك بالدّوام　　تانعيش في فواضلك

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ص ٥ .

(٢) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١٢ .

(٣) فوات الوفيات ٣: ٣٢ .

(٤) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١١٣ ، المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ٢٣٨ ، وينظر الفنون الشعرية غير المعربة ، الزجل في المشرق ص ٨٧ .

وتا نـــطــوي ذكـــر الكرامْ لمـــا تـــنــشــر فضائـــلـــك
ونهنيـــــك بـــكـــلٍّ عـــــامْ
والخلائـــق تــقــول آمـيـــــــــنْ

وفي الخاتمة يقول :

لاعـــدمـــنـــا في كـــلٍّ صـومْ ذا السُّـحـور فيـك وذا الهنا
كـــلّ ليـلـه وكـــلّ يـــومْ تنـــشـــر الشكـــر والـــثـنـــا
الله يُحـيـيـــك بين خيـــر قـــومْ بالـــغ القـــصـــد والمــنـــى
حـــتـــى تـــقـــضـــي فـــرضَ الـصيامْ
بـــيـــن ولـــدان وحور وعـيـــــنْ

المواليا:

اختلف الدارسون في نشأة فن المواليا، فقال بعضهم (١): ابتدعه اهل واسط. وقال آخرون: اخترعه اشياع البرامكة وأتباعهم بعد نكبتهم، فقد حرم عليهم الرشيد رثاءهم باللغة الفصحى . فراحوا يرثونهم وينوحون عليهم بلغة غير معربة، أي بما يشبه العامية ، وينهون مقاطعهم بعبارة «يا مواليا» فعرف هذا اللون بالمواليا ؛ ولعل ذلك من تزيدات الشعوبيين الذين عز عليهم مصرع البرامكة. وقيل: ان سبب التسمية موالاة قوافيه بعضها بعضاً (٢).

وللمواليا وزن واحد: هو بحر البسيط، ويتكون من أربعة مصاريع متشابهة الأواخر ساكنة الروي، والذين ينظمونه يسمون «الموالة»، وهم لايلترمون فيه ضوابط اللغة العربية من حيث الاعراب.

وقد أشار ابن خلكان الى طبيعة هذا الفن وطريقة نظمه فقال (٣): «ألم

(١) ينظر «العاطل الحالي والمرخص الغالي» ص ١٣٢ — ١٤٨ .
(٢) علم القافية ص ٨٧ . الأدب في بلاد الشام ص ٥٧٩ .
(٣) وفيات الأعيان ١:٥٩ .

بعض البغاددة في مواليا على اصطلاحهم ، فانهم مايتقيلون بالاعراب فيه، بل يأتون به كيفما اتفق وذكر المواليا الآتي :

ظفرت ليله بليلى ظفرةَ المجنونْ
وقلت وافى لحظي طالعٌ ميمونْ
تبسمت فأَضاء اللؤلؤ المكنونْ
صارَ الدُّجى كالضحى فاستيقظ الواشونْ

وشاع المواليا في أواخر الدولة العباسية، وتولع به عدد من الشعراء . وخصصوا له مكاناً في دواوينهم ، منهم الشاعر الرقيق حسام الدين الحاجري الإربلي (ت ٦٣٢هـ) . قال في محبوب رآه في منامه وقد عاد اليه بعد جفوة وقطيعة (١):

يامنْ ملكني وعن طرف الوفا عرَّجْ
أطلقْ رقادي وجفني بالسهرْ زوّجْ
ومَنْ لحسنكْ بتاج الحسنِ قد توّجْ
عيد الوصالَ فبحر الشوقِ قد موّجْ

ومن الشعراء العراقيين المشهورين بالمواليا مجد الدين النشابي (ت٦٥٧هـ) وعلي بن ابراهيم بن معتوق المعروف بابن الثردة الواسطي (ت ٧٥٠هـ) وصفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) ، وعز الدين الموصلي (ت ٧٨٩هـ) .

وقد طاب للمصريين النظم في المواليا ، ونسب ابن خلكان مواليا الى عمر بن الفارض (ت ٦٣٢هـ) وعلق عليه بقوله (٢) : «وقد كتبه على اصطلاحهم ، لايراعون فيه الاعراب والضبط ، بل يجوزونَ فيه اللحن بل غالبه ملحون ، فلا يؤاخذ من يقف عليه» .ومن الذين اشتهروا في مصر بنظمه الحسن بن علي المعروف بابن طرطور (ت ٧٦٢هـ) ، وأحمد بن

---

(١) ديوان الحاجري ص ٧٠ .

(٢) وفيات الأعيان ٣:٤٥٥ .

محمد بن علي المعروف بالحجازي (ت٨٣٦هـ)، وعبد الله بن أبي الفرج بن موسى القبطي المصري (ت ٨٤٠هـ) والبدر الزيتوني (توفي بعد القرن التاسع) ، وكان فارساً مجلياً في نظم المواليا ، وهو القائل في مدح الرسول الكريم (١) :

امدحْ لأمــــة محمدْ يظهر الايناسْ
وحدْ في المدحْ واخزي الحاسد الخناس
منهم ورب الفلق في ســـائر الاجناس
مـــن القدمْ خيــر أمةٍ أخرجت للناس

واستخدم الصوفية هذا الفن في أغانيهم مثل قول أبي فارس عبد العزيز ابن عبد الغني المتوفى (ت ٧٠٣هـ) :

لمْ تدّعي الذوقْ والوجدانْ والأحوالْ
وانتَ خالي من الاخلاص ْ في الاعمال
أرجعْ لجسمكْ فسم البينْ لكْ قتــالْ
ترمي حجرْ مايشيلُهْ خمسميت عتّالْ (٢)

ورغب الشاميون في المواليا ، وشاع بينهم ، ومن الذين وصلت الينا نماذج من نظمهم في هذا الفن الشيخ أمين الدين بن مسعود الدينسري ، (ت ٦٨٠هـ) ، وعز الدين ابراهيم بن محمد بن طرخان المعروف بابن السويدي (ت ٦٩٠هـ) ، وعلي بن مقاتل الحموي (ت ٧٦١هـ) وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، وموفق الدين أحمد بن محمد الطرابلسي المعروف بأبي ذر الحلبي (ت ٨٨٤هـ) . واليك هذا ، المواليا لابن السويدي (٣) :

---

(١) الفنون الشعرية غير المعربة ، المواليا ص ٦٤ .
(٢) الدرر الكامنة ٢ : ٣٧٥ .
(٣) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٨ ، المنهل الصافي ١ : ١٢٧ .

البدر والسَّعْد : ذا شهبكْ وذا نجمك
والقدْ واللحظ : ذا رمحكْ وذا سهمك
والبغض والحبْ : ذا قسمي وذا قسمكْ
والمسك والحسن : ذا خالكْ وذا عملك

والمواليا الشامي قريب الشبه بالمواليا المصري من حيث الالفاظ والمعاني واستخدام المحسنات البديعية ، ولعل خضوع القطرين للحكم الايوبي ثم المملوكي هو الذي دعا الى هذا التشابه . .

وانتقل المواليا الى أقطار عربية أخرى ، منها السودان ، ويسمى عندهم – وان كان من أربعة مصاريع – بالدوبيت (١) – وشاع في المغرب . ولديهم نوع يسمى «العيطة» وهو أقرب مايكون في تركيبه الى المواليا ، القديمة الرباعية وتنتهي بعد تلاوتها بكلمة «ياسيدي» .

الكان وكان :

ظهر هذا الفن في القرن الخامس للهجرة ، وشاع بعد ذلك ، ونسب فضل أختراعه الى البغداديين ، وقد سموه بهذا الاسم ، لانهم يقولون في حكاياتهم الخرافية «كان وكان» للدلالة على أنها روايات لا أصل لها ولا سند (٢) .

والكان وكان من الشعر الملحون (٣)،ينظم بأربعة أقفال مختلفة،ويكون القفل الاخير منه – أي الرابع – مردوفاً بحرف علّه ، وتسمى الاقفال الاربعة بيتاً ، ويمكن للشاعر نظم عدة أبيات على قافية القفل الرابع . ولهذا الفن وزن واحد هو :

---

(١) فنون الأدب الشعبي لرشدي صالح ١٦٧:١ .
(٢) ينظر «العاطل الحالي والمرخص الغالي» ص ١٤٨ – ١٧٠ .
(٣) ينظر وجه الشبه بين الكان وكان وفن آخر شاع آنذاك يعرف بالسلسلة (الفلك المحملة بأصداف بحر السلسلة) للدكتور كامل مصطفى الشيبي ص ٣٣ – ٣٥ .

مستفعلـــــــن° فاعـــلاتـــن°   مستفعلن° مستفعلــــــن°
مستفعلــــــن° فاعلاتـــــن°   مستفعلــــن° فعـــلان°

وتكثر في الكان وكان المواعظ والزهد والحكم والامثال . قال صفي الدين الحلي (١) : «واتسع طريق النظم فيه ، وظهر لهم مثل الشيخ العلامة قدوة الافاضل جمال الدين بن الجوزي والشيخ الافضل الأكمل شمس الدين ابن الكوفي الواعظ رحمهم الله تعالى ، فنظموا فيه المواعظ والرقائق والزهديات والامثال والحكم» . قال شمس الدين الكوفي (ت ٦٧٥هـ) مخاطباً الغافلين عن عبادة الله (٢) :.

إلى مَـن° غـفـل° وتـوانـى   الركب° فـاتـك° صُحبتـه°
وفـي الدُّجـى حـدا بيـهـم   الحـادي وحـث° الـنـوق°

. . .

حـث المـطـايا لـعـلـك   بمن° تقـدَّم تـلـحـق°
مـن لايـحـث المـطـايـا   مايـبـصرِ المعشـوق°

. . .

فـناقـتـك° تـتـضمـخ°   من شـدَّة السـير بالـدمـا
تـصـل° إلى مـواطـنـهـا   مضمخـه بـخـلـوق° (٣)

. . .

ياذا مُطلب° قـد بـلـغـت   الأرب، وقـد زال التـعـب°
إلـف° ألفت° فالـنـاقـه   لها عليـك حقـوق°

. . .

(١) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١٤٨ .

(٢) الكشكول للعاملي ١:١١٥ .

(٣) الخلوق : نوع من الطيب .

يــــا بــــدر تــم تــجــلــى وتــيــتّــم الخــلــق منظــره
جمـيـع مـن فـي الـعـالم إلى لـقـاك مـشـــــوق

• • •

فـبـالـنـبـي محـمـد وحـق مـولانـا عـلـي
ماتـيـتّـم الـقـلـب إلا قـوامـك المـشـوق

وانتقل الكان وكان الى مصر ،وسمي بالزكالش.قال علي بن ظافر الأزدي(١): «وأخبرني بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزّيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التي يسميها المصريون الزكالش ، ويسميها العراقيون «الكان وكان»:

النار بين ضلـوعـي ونا غـريـق في دمـوعي
كنيّ فتيـلـه قـنـديـل أموت غـريـق وحـريق

ومن أبرز الشعراء في نظم «الكان وكان» في القطر المصري : شرف الدين ابن أسد (ت ٧٣٨هـ)، وبدرالدين الزيتوني (ت ٩١٠هـ) . وابراهيم المعمار (ت ٧٤٩هـ) ، وله (٢) :

شكـوت للحـبّ دائـي ومـا ألاقـي من الـهوى
وقلـت : يـا نـور عيني قـد شفـنـي التبـريـح

• • •

قـال : تـدعـي الحب تكذب مـارا عليـك دلائلـه
قلـت : أكتمـو في فـؤادي فقـال : هـذا ريـح

أما في الشام فلم يشع كثيراً . وقد أورد ابن شاكر الكتبي مقاطع منه للشاعر علي بن الحسن بن منصور الحريري (ت ٦٤٥هـ) وهي في غاية الفحش والبذاءة (٣) .

---

(١) بدائع البدائه ص ٢٤٩ .
(٢) الفنون الشعرية غير المعربة ، الكان وكان والقوما ص ٣٥ .
(٣) ينظر فوات الوفيات ٣ : ٨ .

القوما :

فن شعري ظهر في بغداد ، وشاع في أواخر الدولة العباسية ، ويعزى اختراعه إلى أبي بكر محمد بن عبدالغني المعروف بابن نقطة (ت ٦٢٩هـ) ، وقيل اخترعه شخص آخر قبله لا يُعرف اسمه ، وقد أشار صفي الدين الحلي إلى ذلك فقال (١) : «ومخترعوه البغاددة أيضاً في دولة الخلفاء من بني العباس — رضي الله عنهم — برسم السحور في شهر رمضان . واشتقاق اسمه من قول المغنين للتسحير في آخر كل بيت منه بعد غناء الرمل أو غناء الزجل (قوما للسحور) يُنَبِّهون به ربَّ المنزل ، ويذكرون فيه مدحه ، والدعاء له ، وتقاضيه بالإنعام ، فأطلق عليه هذا الاسم ، وصار علماً له، ثم لما شاع ، وكثر فيه التصنيف نظموا فيه الغزل والزّهرى والعتاب وسائر الأنواع ، كما قبله من الفنون الأخرى . وقيل إن أول من اخترعه منهم ابن نُقطة برسم الخليفة الناصر — رحمه الله تعالى — والصحيح أنه مخترع من قبله ، وكان الناصر يطرب له ، وجعل لابن نقطة في كلٍّ سنة ما يفضل عنه من الانعام ، فلما توفي ابن نقطة ، وكان له ولد صغير ماهر في نظم القوما والغناء والأزجال ، والغناء بها ، وأراد أن يُعرِّفَ الخليفة بموت والده ليُجريه على مفروضه ، فتعذَّر ذلك عليه فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ اتباع والده من المسحِّرين ، ووقف في أول ليلة من الشهر تحت الطيارة (٢) ، وغنّى التوبة بصوت رقيق فأصغى الخليفة إليه ، وطرب له، فلما وصل إلى القوما كان أول ما قاله :

يا سيِّدَ الساداتْ
لك بالكرم عاداتْ
أنا بُنَيّ ابنَ نقطه
وأبي — تعيش أنتَ — ماتْ

---

(١) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١٧٣ .

(٢) الطيارة : تعرف الآن بـ «الطارمة» .

فأعجب الخليفة منه هذا الأختصار ، واستحضره ، وخلع عليه . وفرض له ضعفي ما كان لأبيه» . وأورد ابن حجة الحموي هذا الخبر بلا تغيير ولا تعليق (١) .

والقوما ينظم بأربعة أقفال ، ثلاثة منها بقافية واحدة وروي واحد ، وهي الأول والثاني والرابع ، والقفل الثالث أطولها وهو مهمل القافية ، ومجموع الأقفال الأربعة يسمّى بيتاً . أما وزن القوما فهو : مستفعلن فعلان (أو فاعلان) .

قال صفي الدين الحلي في الملك المؤيد اسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ للهجرة (٢) :

لا زالَ سَعْدُكْ جديدْ
دايمْ وجدكْ سعيدْ
ولا برحْتَ مُهنّا
بكلِّ صومٍ وعيدْ

• • • •

في الدهر أنتَ فريدْ
وفي صفاتكْ وحيدْ
فالخلْق شعرٌ منقّح
وأنتَ بيت القصيدْ

• • • •

لا زلتَ في تأييدْ
في الصوم والتعييدْ
ولا برحتَ تُهنّا
في كلِّ عامٍ جديدْ

• • • •

(١) بلوغ الأمل في فن الزجل ص ١٤٣ .

(٢) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١٧٧ .

ظلُّكَ علينا مديدْ
ما فوق جودكْ فريدْ
وقد غمرت بفضلك
قريبنا والبعيدْ

• • • •

لا زلتَ في كلّ عيدْ
تحظى بجَدّ سعيدْ
عُمركْ طويلٌ وقدرك
وافرْ وظلكَ مديدْ

• • • •

ما زال برُّكْ يزيدْ
على أقلِ العبيدْ
وما برحْ جود كفكْ
منا كحبلِ الوريدْ

• • • •

لا زال ظلكْ مديدْ
دايمْ وباسكْ شديدْ
ولا عدمنا سحوركْ
في صومْ وفطر وعيدْ

بهذا الأسلوب السهل المأنوس مدح صفي الدين الحلي الملكَ المؤيد اسماعيل ابن علي المشهور بمكانته العلمية والأدبية ، وهو صاحب كتاب تقويم البلدان وكتاب المختصر في أخبار البشر ، وكان هذا المدح في شهر رمضان ، وقد نعته بنعوت العظمة والجلالة ، ووصفه بالجود والكرم ، ودعا له بالعمر المديد والعيد السعيد في كل عام جديد .

البند :

فن أدبي نشأ في العراق في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة ، ثم شاع في منطقة الخليج العربي طيلة ثلاثة قرون (١) .

ويكتب البند على هيئة النثر ، ووزنه «مفاعيلن» مكررة تباعاً حتى آخره، وكفّها حسن (٢) ، وهذه التفعيلة هي المحور الأساس لا الشطر ، ويجوز في أول التفعيلة الخرم والحزم (٣) ويغلب في آخـــر جزء منه الحذف «مفاعي» .

والبند له شبه بالشعر الحر من حيث إقامة الوزن على «التفعيلة» دون الاشطر . ويبدو أنّ البند لم يكتب دائماً بأشطر متباينة ، فهناك بنود ذات أشطر متساوية في الطول كالشعر العمودي من نحو مانجد في بعض بنـود الشيخ حسين العشاري (ت١٢٠٠م) .

وقد اشتهر الكثيرون في نظم البند (٤) ، أمثال : شهاب الدين بن معتوق الموسوي (١٠٨٧هـ) وعبد الرؤوف بن الحسين الحسني الجد حفصي (ت١١١٣)هـ ومحمـد بن أحمـد الزيني (ت١٢١٦هـ) ومحمد بن اسماعيل الملقب بابن الخلفة (ت١٢٤٧هـ) وعبد الغفار الأخرس بن عبد الواحد (ت١٢٩٠هـ) والشيخ أحمد بن درويش علي البغدادي الحائري (ت١٣٢٩هـ) .

وقد درج العراقيون على انشاد البنود على إحدى طريقتين ، فإما أنهـــم يقرأونها معربين أواخر كلماتها ، ويغلب هذا في أحوال التلاوة السريعة ،

---

(١) ينظر البند في الأدب العربي – تاريخه ونصوصه لعبدالكريم الدجيلي ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٥٩ ، وميزان البند للدكتور جميل الملائكة ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٥ ، والبند في الأدب العربي لعبدالرزاق الهلالي ، مجلة الاقلام ، الجزء الثالث ١٩٦٤ ، وعلم القافية للدكتور صفاء خلوصي ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٣ .

(٢) الكف : ذهاب نون مفاعيلن ، فتصبح مفاعيل .

(٣) الخرم : حذف أول متحرك من الوتد المجموع بحيث أن «مفاعيلن» تصبح «فاعيلن» .
الحزم : زيادة في أول التفعيلة لا يعتد بها في التقطيع .

(٤) ينظر ميزان البند ص ٢٦ – ٢٨ .

وإما أنهم يقفون اختياراً في مواضع القوافي حيثما يمكن الوقف ، فيكسبون البند ظرفاً ورشاقة وموسيقى قد لا تجدها في سواه من المنظوم الخارج على عمود الشعر من الموشح وما يجري مجراه ، وهذه هي الطريقة الشائعة في الإنشاد (١) .

قال عبد الغفار الأخرس يمدح السيد سلمان بن السيد علي القادري الكيلاني المتوفى سنة ١٣١٥ للهجرة (٢) :

«محبٌ ذائب الدمع ، رماه البين بالصدْع ، بكى من حُرقة الوَجد ، على مَنْ حفظَ العهد . وخشف ناعمِ الخد ، مليحٍ عَبلِ (٣) الرِّدف ، صبيحٍ لينِ الوطف . أدارَ الكأسَ والطاس ، وحاكى الوردَ والآس . لعمري منه خداً وعذارا ، ولقد طالتْ عليه حسراتي بعدما كانت قصارا ، فهل يرجع مافات ، وهيهات وهيهات فلو تنظر أشياءَ نظرناها ، بأيامٍ قضيناها بحيث ابتسمَ الزهر ، وقد بلّله القطر ، فسلك اللؤلؤ الرطب بجيد الغصنِ مثبوت ، وطرف النرجسِ الغضِّ بخدِ الوردِ مبهوت . وللأوراق تصفيف ، وللورقاءِ تصويت ، ووشي الحسنِ في الآفاقِ محمرٌ ومثبوت ، وسيف البرقِ مشهور ، وقلب النهر مذعور ، وشمل الأرض بالأزهار مجموعٌ ومنثور . فهاتيكَ الأزاهير ، كأمثالِ الدنانير . ألا أيها الساقي ، لقد هيّجتَ أشواقي . فيا روحي ويا راحي ، ويا علّةَ أفراحي ، ويا جسمي ومصباحي ، ويا حُقّاً من العاج ، سباني طرفُكَ الساجي . وقد أورثني حبُّك من طرفك سقماً وانكسارا ، وقد أجّجَ من وجدي سنا نورِ محياكَ — وايم اللهِ — نارا .

---

(١) ميزان البند ص ١٣ .

(٢) علم القافية للدكتور صفاء خلوصي ص ١٢٣ .

(٣) عبل : ممتلىء .

أدرها مُرَّةً تحل ، فقد لذَّ بها الوصل ، فلا وعدٌ ولا مطل ، على ألحان سَنطور رخيم البُم والزير ، فإن الزير والبُم ، يزيل الهمَّ والغم . وجُدْ لي من ثناياكَ ، على روض محيّاكَ فإني بكَ مغرور ، ومن تَهديك معذور. لقد طابَ لنا الوقت ، وقد أسعدنا البخت ، وغابَ العاذل اللاحي ، فأتحفني بأقداحي ، وقلْ لي هو من ثغري أفاويق من الخمر ، حكت ذوباً من التبر ، وسالت من لجين الكاس إذ ذاكَ نضارا ، بنت كرمٍ لبست من حبب المزج سوارا ، وتحلت بحلى من سناها لن يعارا ، وأذبناها عقيقاً ، واتخذناها خَلُوقا . أشبهت من وضح الصُّبح ضياءً وبهاء ، وصفت حتى حكت لسلمان صفاء » .

الفصل الثالث

الشعراء

شمس الدين الكوفي ٦٢٣ – ٦٧٥هـ

شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالله الهاشمي الكوفي (١) ، ولد في بغداد سنة ٦٢٣هـ في أسرة كريمة ، وتوجه منذ الصغر نحو الدرس والتحصيل العلمي حتى بلغ مرتبة التدريس ، وصفه ابن شاكر الكتبي بقوله : «كان أديباً فاضلاً عالماً شاعراً ظريفاً كيساً دمث الأخلاق» .

مارس شمس الدين الكوفي مهنة التدريس في المدرسة التتشية (٢) ، وتولى الخطابة في جامع السلطان (٣) ، وخصص ساعات في الأسبوع للوعظ في باب بدر (٤) . وكان حريصاً على الاسلام والمسلمين ، يفيد الناس في التدريس ، ويحثهم في خطبه ومواعظه على التمسك بعروة الدين ، والتعاون والتعاضد ، وأخذ الحيطة والحذر من الغادرين والطامعين .

---

(١) ينظر الحوادث الجامعة ص ٣٣٤ ، فوات الوفيات ٤ : ١٠٢ وفيه تصحف اسمه إلى محمود ، عيون التواريخ ٢ : ١٣٧ ، ذيل مرآة الزمان ٣ : ١٥ ، تلخيص مجمع الآداب ٤/١ : ٣٥٠ عقود الجمان للزركشي (مخطوطة الفاتح رقم ٤٤٣٤) ص ٣٢٤ .

(٢) التتشية : من مدارس الحنفية ببغداد ، بناها الأمير خمارتكين بن عبدالله التتشي في حدود سنة ٥٠٠هـ وموقعها اليوم مطابق لموقع جامع الوزير المجاور لسوق السراي عند الجسر (مدارس بغداد في العصر العباسي ص ٤٨) .

(٣) يقع هذا الجامع في أرض العلوازية عند المقبرة السهلية المعروفة حالياً بمقبرة الشهداء (مدارس بغداد ص ٦٢) .

(٤) أحد أبواب دار الخلافة العباسية الأخيرة بالجانب الشرقي من بغداد وكان يسمى باب الخاصة ثم نسب إلى الأمير بدر مولى المعتضد بالله ، وكان عند أرض المدرسة المرجانية الحالية من الغرب لا الشرق .

وحينما داهم هولاكو بجيوشه الجرارة العراق ، وضرب العاصمة بغداد سنة ٦٥٦هـ ، واستباح الدور والمدارس والمساجد ، ونهب الأموال ، وانتهك الأعراض ، وقتل الناس بلا رحمة ولا شفقة ، تألم شمس الدين الكوفي أشد الألم ، وعبّر عن مشاعره تجاه هذه الحادثة الموجعة بقصائد كثيرة ، بكى فيها دولة بني العباس ، والمدينة المنكوبة ، ووصف الفضائح التي ارتكبها هذا الطاغية . وقد سماه محمد رضا الشبيبي في كتابه عن ابي الفوطي «شاعر مأساة بغداد» .

رثى الشاعر الأهل ، وندبَ الأحباب ، وأبّنَ الأصحاب ، في قصائد تفيض بالدمع والأسى . وما نظنُّ شاعراً استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه شمس الدين الكوفي في بكاء الدولة العباسية ، فقد اقتطع بكاءه عليهم من فؤاده ، وسبق لنا ذكر قصيدة له في الفصل الأول ، ونورد هنا قصيدة أخرى سلك فيها سلك المتيمين الذين أضناهم فراق الأعزاء ، وقرّح جفونهم كثرة البكاء ، مطلعها (١) :

عندي لأجل فراقكم آلام — فإلامَ أعذل فيكم وألام
من كان مثلي للحبيب مفارقاً — لاتعذلوه فالكلام كلام (٢)
نعم المساعد دمعي الجاري على — خدي إلاّ أنه نمّام
قف في ديار الظاعنين ونادها — (يادار مافعلت بك الأيام) (٣)

ويتساءل في قصيدته — على عادة من وقف على الأطلال — عن الراحلين الذين خلّفوه يتجرع لوعة الأسى ، ومرارة الحرمان ، وعذاب الوحدة ، ويقسم بالبقاء على عهد الهوى والمحبة مهما كلفه ذلك :

وحياتكم إني على عهد الهوى — باق ، ولم يخفر لديّ ذمام
فدمي حلالٌ إن أردت سواكم — والعيش بعدكم عليّ حرام

(١) فوات الوفيات ٢ : ٢٣٢ .
(٢) الكلم : الجرح ، وجمعه كلوم وكلام .
(٣) صدر بيت لأبي نواس ، وعجزه : ضامتك والأيام ليس تضام (ديوان أبي نواس ص ٤٠٧)

ويسترسل الشاعر على هذه الشاكلة الى نهاية القصيدة في البكاء والنحيب دون أن يوضح لنا مادهي المدينة المنكوبة من خراب ودمار ، وقتل وتشريد وأسر واغتصاب ، ونهب وحرق ، واليكَ مايقوله في خاتمة القصيدة :

ياليت شعري كيف حال أحبتي وبأي أرضٍ خيّموا وأقاموا
مالي أنيس غير بيت قاله صب رمته من الفراق سهام
(والله مااخترت الفراق وإنما حكمت عليَّ بذلك الأيام)

وكان شمس الدين يعتز بأرومته العربية ، ويتمسك بها ، ويخلص لها ، وقد أشار الى ذلك في شعره ، فقال (١) :

عربٌ يعزُّ المحتمي بجناحهم والعرب مازالتْ تعز كذاكا

وحينما وجد هؤلاء العرب قد أصابهم الضيم والحيف بعد ذلك العز ، احتمى برسول الله صلى الله عليه وسلم ووجده خير عزاء لنفسه المكلومة وشفاء لها . قال في قصيدة طويلة (٢) :

جار الزمان على قلبي الحزين ولو لامدحي المصطفى لم يبق لي رمق
المجتبى خير خلقِ اللهِ كلهم ومن تكمل فيه الخلق والخلق
صلى الأله على المختارِ ماطلعت شمسٌ وأشرقَ نجمٌ او دجاغسق

وغالب شعره الذي وصل إلينا — ماخلا القصائد التي نظمها في رثاء بغداد — في الغزل الصوفي وذكر الديار الحجازية والتغني بها ، وقد حاكى في قسم غير قليل من هذاالشعر طريقةَ الشريف الرضي في حجازياته التي قالها في أماكن لايحلّ فيهــا الرفث والفسوق نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها ، وبفورانها فما استطاع لها كتماناً ، فأرسلها ترانيم تحلّت بصفاء الروح ، وسمو العاطفة ؛ فغفر له معاصروه هتافه

(١) فوات الوفيات ٤ : ١٠٤ .

(٢) عيون التواريخ ٢٠ : ١٤٠ .

للجمال ، واشادته بصبوات نفسه ، ولوعات هواه (١) . ومن شعر شمس الدين في باب الغزل الأبيات الآتية من قصيدة أولها (٢) :

شهود غرامي في هواك عدول سهادٌ ودمعٌ سائل ونحول
وشوقي الى اقياكَ شوقٌ مبرّح ولي شرح حالٍ في الغرامِ يطول

ويقول في آخرها :

ترى هل لنا بعد الفراق تآلفٌ؟ وهل لي إلى طيب الوصال وصول ؟
لأشكو إليه مالقيت وما الذي جرى لي ودمعي شاهد ودليل
فواللهِ مايشفي المشوقَ رسالةٌ ولايشتكي شكوى المحب رسول

إن المحبَّ – كما لاحظنا – يذوب من تعب السهاد والبكاء ، ويضنى من تباريح الصبابة ولواعج الغرام ، فلا يقرّ له قرار ، ولايهدأ له بال مادام بعيداً عن الحبيب ، وهذا مبدأ الصوفية الذين يحاولون بمواجدهم الوصول إلى الذات العلية .

وشارك شمس الدين الكوفي في نظم الموشحات . وهو متأثر – كما يبدو – بالشاعر الصوفي الأندلسي محيي الدين بن عربي الذي ارتحل إلى الشرق ،وتنقل بين مصر والشام والحجاز وبغداد وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ وقبره بالصالحية في مسجد يعرف باسمه في سفح جبل قاسيون .

قال شمس الدين في مطلع موشحة له (٣) :

قد صفا الوقت وقد رقَّ النسيم قم بنا نربح
قد خلا السمت ومن نهوى نديم حقّنا نفرح
في طوى قد شمت جنات النعيم أبداً نفتح

• • •

(١) في موكب الخالدين ص ٦٦ .
(٢) فوات الوفيات ٤ : ١٠٥ .
(٣) فوات الوفيات ٤ : ١٠٦ .

فاختلس من صرف دهر ورقيب ساعــــة الأمكـــان
فالتواني بعد أن يدنو الحبيـب غايـــة الخسـران

وفي آخرها قـال :

ياعذولي ليس ذا وقت العتاب فــأنـا مشغـول
أنا أبغي الآن مع كشف الحجاب أبلــغ المأمـول
إن تقل أنت قتيلٌ فالجواب رضـي المقـتـول
خلّني ياعاذلَ الصب الكئيب كـان ماقـد كــان
فحبيبي نُصبَ عيني لايغيبْ مـن ضميـري دان

إن شعره – على سهولة ألفاظه وبساطة تراكيبه – لايخلو من الصنعة والتكلف ،واستخدام صور البيان وزخارف البديع ، فمن الجناس قوله(١) :

ليت العذولَ يرى من فيه يعذلنا لعلّه إذ يرى عيناً يراعينـا
الى متى نحمل البلوى وعاذلنـا بغيـر ماهو يعنينا يعنّينـا

ومن الطباق في القصيدة نفسها :

فصار يرحمنا مَن كان يأملنـا وعاد يُبعدنا من كان يدنينـا
وبات يخذلنا من كـان ينصرنا وصار يرخصنـا من كان يغلينا

ومن الكناية قوله (٢) :

أسكنته رَبْعَ الغرام فيا لـه من ساكنٍ لايستطيع حراكـا

ومن الاستعارة في القصيدة نفسها :

ضرب الغرام على النفوس سرادقاً والحسن مدّ على العقولِ شباكا
كيف الخلاص من الحمى وبربعها غزلان تنصب للأسود شراكا

توفي شمس الدين الكوفي سنة ٦٧٥هـ بعد أن عاصر أحلك فترة مرّ بها العراق ، وقد عبرَ عنها في شعره أصدق تعبير يمكن أن يعدّ وثيقة هامة الى جانب الوثائق التاريخية .

---

(١) فوات الوفيات ٤ : ١٠٣ .

(٢) فوات الوفيات ٤ : ١٠٣ .

شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري ٦٠٨ – ٦٩٥هـ

نال المديح النبوي حظوة كبيرة عند كثير من الشعراء ، منهم الإمام يحيى ابن يوسف الصرْصَري المعروف بشاعر رسول الله المقتول سنة ٦٥٦هـ بيد التتر (١) . والإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري الذي نحن بصدد دراسة حياته وشعره .

ولد شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد (٢) في مدينة دلاص بصعيد مصر غربي النيل سنة ٦٠٨هـ ، وكان أبوه من بوصير ، وهي إحدى القرى القريبة من الفيوم بمصر . ويتّفق المؤرخون على انتمائه إلى قبيلة صنهاجة التي عاشت في بلاد المغرب وقد أشار البوصيري إلى ذلك في شعره ، فقال (٣) :

فقل لنا مَن ذا الأديب الذي زادَ به حُبي وَوَسواسي
إن كان مثلي مغربياً فما في صُحبة الأجناس من باسِ
وإن يكذّب نسبتي جئتُه بجبّتي الصُّوفِ ودَقّاسِ

لم تصل إلينا أخبار البوصيري الخاصة بسيرته كاملةً ومفصلةً ، وكل ما نعلم منها أنه حفظ القرآن الكريم في صغره ، وتعلّمَ مبادىء الفقه ، وجاء إلى القاهرة والتحق بمسجد الشيخ عبد الظاهر ، حيث درس العلوم الدينية واللغة العربية وآدابها وشيئاً من التاريخ .

---

(١) قال ابن شاكر الكتبي عنه : « صاحب المدائح النبوية السائرة في الآفاق ، لا أعلم شاعراً أكثر من مدائح النبي صلى الله عليه وسلم أشعر منه ، وشعره طبقة عالية ، وكان فصيحاً بليغاً ، شعره يدخل في ثمان مجلدات ، وكله جيد» . فوات الوفيات ٤ : ٢٩٨ .

(٢) تنظر ترجمته في فوات الوفيات ٣ : ٣٦٢ ، الوافي بالوفيات ٣ : ١٠٥ ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ١ : ١٢٤ ، شذرات الذهب ٥ : ٤٣٢ ، تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٦٠ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٩٦ ، الأدب في العصر المملوكي ١ : ٢٦٥ ، البوصيري حياته وشعره لعبدالعليم القباني (دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨) ، مقدمة ديوانه : تحقيق سيد كيلاني (القاهرة ١٩٥٥)

(٣) الديوان ص ١٢٦ .

التحق البوصيري بالوظيفة ، قبل التحاقه بشيخه أبي العباس المرسي (١) أحد قادة التصوف في ذلك العصر ، وتولى الجبايات بالشرقية ، ثم كاتباً في بلبيس وهي مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الذاهب نحو الشام. وكان عفيفاً نزيهاً ، وقد آلمه أخلاق الموظفين الرديئة ، ودناءتهم ، وسوء معاملتهم للناس ، وأشار إلى ذلك في قصيدة له ، فقال (٢) :

ثكلت طوائف المستخدمينا فلم أرَ فيهم رجلاً أمينا
فخذ أخبارهم مني شفاهاً وأنظرني لأخبركَ اليقينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم مع التجريب من عمري سنينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم ؛ فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاكَ مالبسوا حريراً ولا شربوا خمورَ الأندرينا
أمولانا الوزيرَ، غفلت عما يهم من الكلاب الخائنينا
وفي دار الولاية أيُّ نهبٍ فليتك لو نهبتَ الناهبينا

إن القصيدة صورة واضحة للحالة المزرية التي كان عليها الموظفون آنذاك في ابتزاز أموال المواطنين ، وعرقلة أعمالهم ، وتأخير معاملاتهم والتلاعب بمقدراتهم .

لم يصبر البوصيري على ما كان يرى في دوائر الدولة من أعمال مقرفة فاعتزل الوظيفة ،وانزوى في بيته ، واتخذه مكتباً لتحفيظ القرآن الكريم ؛ ليكسب عيشه بشرف وكرامة ، وقد أشار الى ذلك بقوله (٣) :

قد صار كُتّابي وبيتي من بني غيري وأبنائي كبرجِ حمام

وتتلمذ عليه الكثيرون ، واخذوا منه ، وراجعه طلاب المعرفة الذين صاروا فيما بعد علماء مشهورين أمثال أبي الفتح بن سيد الناس اليعمري

---

(١) أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصاري ، يلقب بالمرسي نسبة إلى مرسية بالمغرب ، توفي سنة ٦٨٦هـ .
(٢) الديوان ص ٣١٨ .
(٣) الديوان ص ٢٠٦ .

الاشبيلي (ت ٧٣٤ هـ) وعز الدين بن جماعة الكناني الحموي (ت ٧٣٥ هـ) وأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)

أصيب البوصيري في اخريات أيامه بمرض عضال ، أقعده عن الحركة ، وتوفي بمدينة الاسكندرية سنة ٦٩٥ هـ ، وله فيها قبر مشهور يتصل به مسجد تدرس فيه العلوم الدينية .

شعره :

نظم البوصيري شعراً كثيراً ، يمثل حياته الخاصة ، وحياة المجتمع المصري في القرن السابع للهجرة ،فهو طوراً في زي الصوفي المتقشف ، وطوراً في ثوب المداعب المتظرف ، ولهقصائد في شكوى حاله ، والتذمر من الموظفين تمثل جانباً من سوء الحالة الاجتماعية وعيوب الادارة بمصر في ذلك الحين (١) .

ان شعره بسيط في روحه وأسلوبه ، ولاسيما الذي انتقد فيه موظفي الدولة ومستخدميها وقد ذكرنا أبياتاً من قصيدته النونية ، ونلاحظ هذه الميزة أيضاً في شعره الذي تحدث فيه عن أحواله الخاصة ، وأوضاع أسرته من ذلك قصيدته التي رفعها الى الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم (٢) :

يأيُّها المولى الوزير الذي	أيامه طائعةٌ أمرَهْ
ومن له منزلةٌ في العلا	تكلُّ عن أوصافها الفكره
اليكَ نشكو حالنا ، إننا	عائلة في غايةِ الكثره
أحدِّث المولى الحديثَ الذي	جرى لهم بالخيط والابره
صاموا مع الناسِ ولكنهم	كانوا لمن يبصرهم عبره
ان شربوا فالبئر زيرٌ لهم	مابرحتْ والشَرْبة الجره
لهم من الخبيز مسلوقةٌ	في كلِّ يومٍ تشبه النشره

(١) ينظر المدخل في الأدب العربي ص ١١٦ .
(٢) الديوان ص ١١٧ .

أقول مهما أجتمعوا حولها تنزهوا في الماء والخضره
وأقبل العيد وما عندهم قمحٌ ولا خبزٌ ولا فطره
فارحمهم إن أبصروا كعكةً في يد طفلٍ أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها بشهقةٍ تتبعها زَفْرَه

ان هذا الشعر أشبه بطلب استرحام ، عرضَ الشاعر فيها حالة أطفاله وهم يتضورون جوعاً ، والقصيدة طويلة نقل فيها حديث زوجته مع أختها فقال :

ويوم زارت أمهم أختها والاخت في الغيرة كالضره
واقبلتْ تشكو لها حالها وصبرها مني على العسره
قالت لها : كيف تكون النسا كذا مع الازواج ياعره
قومي اطلبيي حقّكِ منه بلا تخلّفٍ منكِ ولا فتره
وان تأبّى فخذي ذقنه ثم انتفيها شعرةً شعره
قالت لها : ماهكذا عادتي فانّ زوجي عنده ضجره
أخاف إن كلمته كلمةً طلقني ، قالت لها : (بعره)
وهونت قدريَ في نفسها فجاءت الزوجة محتره
فاستقبلتني فتهددتها فاستقبلتْ رأسي بأجرّه
وحقّ من حالته هذه أن ينظرَ المولى له نظره

لقد طغى على جو القصيدة روح الدعابة ، ويبدو أنه كان ميالا الى هذه الطريقة في تعامله مع الاخرين حينما يقع في حرج أو تصيبه ضائقة أو مشكلة وكان البوصيري كثير السؤال ملحاً في الطلب ، يخرج — أحياناً — عن حدود الادب والرزانة، من ذلك قوله وهو يطلب كنافة من القاضي عماد الدين (١) :

ماأكلنا في ذا الصيام كنافَه اه ، وابعدها عليّ مسافه

(١) الديوان ص ١٢٦ .

قال قومٌ: ان العمادَ كـريـمٌ قلت :هذا منكم حديث خرافه

أنا ضيفٌ له وقد متُّ جوعـاً ليت شعري لمْ لاتعدُّ الضيافه

ويستطرد بعد ذلك في أبيات كلها تشنيع على القاضي المذكور والسخرية منه، ويبدو أن هذه القصيدة وغيرها هي التي دفعت الإمام العلامة شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي(ت٧٢٥هـ) أن يقول (١): «كان البوصيري– على غزارة فضلة – ممقوتاً؛ لإطلاق لسانه في الناس بكل قبيح، وذكره لهم بالسوء في مجالس الأمراء والوزراء».

اتجه البوصيري بعد اتصاله بأبي العباس المرسي وتقدم العمر به وهجوم المرض عليه الى نظم قصائد في مدح الرسول الكريم،ومن أشهر هذه القصائد في هذا الميدان «البردة» وهي في مئة وستين بيتاً مطلعها (٢):

أمن تذكُّر جيرانٍ بذي سلـمِ مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍبدمِ

وهمزيته وهي في أربعمئة وسبعة وخمسين بيتاً، مطلعها: (٣)

كيف ترقى رقيكَ الأنبيـــاء ياسماءً ما طاولتهـا سمـــاء

واللامية التي سماها «ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد»، وهي في مئتين وأربعة أبيات ،مطلعها (٤):

إلى متى أنتَ باللذاتِ مشغـول وأنتَ عن كلٍّ ماقدمتمسؤول

وثمة قصائد أخرى مدح بها الرسول الكريم ،نظمها في رحلته الى الحجاز منها قصيدة مطلعها (٥):

سارت العيس يرجّعنَ الحنينـا ويجاذبن من الشوقِ البُرينـا

---

(١) الديوان ص ٢٣٩ .
(٢) الديوان ص ١٩٠ .
(٣) الديوان ص ١ .
(٤) الديوان ص ١٧٢ .
(٥) الديوان ص ٢٠٩ .

وقصيدته التي نظمها وهو في طريق عودته من الديار المقدسة، مطلعها(١):

أزمعوا البين وشدُّوا الرِّكـابـا ... فاطلب الصبرَ وخلِّ العتابـا

وتعدُّ قصيدة البردة من أكثر قصائده المدحية انتشاراً، وقد بهرت معاصريه ومن جاء بعدهم إلى اليوم، وشرحت وعورضت مراراً وتكراراً، وترجمت إلى لغات عديدة كالفارسية والتركية، وعارضها أحمد شوقي بميمية مشهورة له، كما افتتن بها الشعراء ونظموا قصائد في مدح الرسول الكريم على غرارها عُرفت «بالبديعيات» ضمنوا كل بيت فيها محسناً من محسنات البديع (٢).

أما المناسبة التي استدعت نظم قصيدة البردة، فقد ذكرها ابن شاكر الكتبي، (٣) وخلاصتها أن البوصيري أصيب بالفالج، ونظم هذه القصيدة وقرأها بين يدي النبي في منامه، وقد أعجب بها وألقى عليه بردته، فانتبه وهو مُعافى من مرضه. والرواية – على مايبدو – من نسج الخيال، اذ ذكر ناقلو هذه القصيدة أن البوصيري لما وصل إلى قوله: «فمبلغ العلم فيه أنه بشر»، توقف، فقال له النبي: قل ياإمام: «وأنه خير خلق الله كلهم» فأدرج البوصيري هذا المصراع في قصيدته، وهذا إفك وبهتان، اذ ورد عجز هذا البيت في أحدى قصائد الإمام الصرّْصَري (٤) لقد وصف البوصري في مدائحه النبوية شمائل الرسول الكريم وخصاله، وذكر شيئاً من سيرته، وطرفاً من مزايا رسالته العظيمة، وضمنها نصائح وارشادات

---

(١) الديوان ص ٢٩.

(٢) من الذين اشتهروا بنظم البديعيات: صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ)، وعز الدين الموصلي (ت ٧٨٩هـ)، وابن جابر الأندلسي (ت ٧٨٠هـ)، وابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، وابن المقري (ت ٨٣٧هـ) وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).

(٣) فوات الوفيات ٣:٣٦٨.

(٤) الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ٢٧٥. وينظر بحثنا (المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية) في مجلة آداب الرافدين، العدد ١٣ لسنة ١٩٨١.

ودعا إلى رياضة النفس وتهذيبها في صدق نظر وخلوص نيّة. من ذلك قوله :(١)

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على
حبّ الرّضاع وان تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن تولّيه
إنّ الهوى ما تولّى يصم أو يصم
وراعها وهي في الأعمال سائمة
وإن هي استحلت المرعى فلاتسم
كم حسّنت لذّة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أن السّمّ في الدسم
وأخش الدسائس من جوع ومن شبع
فرب مخمصة شر من التّخم
واستفرغ الدّمع من عين قد امتلأت
من المحارم والزم حمية النّدم

ونال البوصيري ثناء الدارسين القدامى، فقال ابن شاكر الكتبي (٢): «وشعره في غاية الحسن واللطافة، عذب الألفاظ منسجم التراكيب». كما وازنه ابن سيد الناس اليعمري بجماعة من شعراء عصره ، فقال :« هو أحسن من أبي الحسين يحيى الجزار وسراج الدين عمر الوراق» (٣).

إن أجود ماقال البوصيري من شعر كان في مدح الرسول الكريم ،ومن أهم سماته طول النفس، والتفصيل والاستقصاء في المعاني ،والميل الى الحجاج

(١) الديوان ص ١٩٠ .

(٢) فوات الوفيات ٢: ٣٦٤ .

(٣) أبو الحسين يحيى بن عبدالعظيم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩هـ ، وسراج الدين عمر بن محمد بن حسن الوراق المتوفى سنة ٦٩٥هـ .

والمناقشة معتمداً الأدلة الحسية والمعنوية والعقلية والمنطقية. ويغلب على أسلوبه في الاغراض الأخرى الضعف والركة، وتشيع في لغته الالفاظ العامية المصرية والشعبية الدارجة.

صفي الدين الحلي ٦٧٧ – ٧٥٠هـ

هو أبو الفضل صفي الدين عبد العزيز بن سرايا بن علي الطائي (١). ولد يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٧هـ في مدينة الحلة، تلك المدينة التي أسسها المزْيَدون سنة ٤٩٥هـ وحملت مشعل الحضارة الإسلامية ردحاً من الزمن غير يسير . وظلت ترقى سلم المجد يوم كان معظم البلاد الأسلامية يتخبط في ظلام دامس ، وقد طغى عليها الأضطراب في جميع نواحي الحياة، من سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية من جراء تلك الهجمات المدمرة التي شنها عليهم المغول الذين سيطروا بالعسف والتنكيل وقضوا على معالم المدنية والحضارة. إلاّ الحلة فقد نجت من هذا بأعجوبة فظلت شعلتها تتوقّد ، وما زال نورها يتوهّج في العلم والعرفان، فاستطاع الصفي أن ينهل ماشاءَ من هذا المورد العذب (٢)،وقد ذكر صفي الدين الحلة في شعره، فقال: (٣)

أَلا بلغ هديتَ سُماة قومي   بحلةِ بابلٍ، عند الورودِ
أَلا لاتشغلوا قلباً لبُعدي   فاني كلَّ يومٍ في مزيدِ

وقال: (٤)

من لم ترَ الحلةَ الفيحاءَ مقلتُه   فانه في انقضاءِ العمر مغبون
فالغُدر طافحةٌ، والريح نافحةٌ   والورق صادحةٌ، والطلُّ موضون

نشأ في حجر أسرة عربية لها مكانتها المرموقة ومنزلتها الرفيعة، وتعلمَ

---

(١) تنظر ترجمته في فوات الوفيات ٢: ٣٣٥ ، الدرر الكامنة ٢: ٣٧٩ النجوم الزاهرة ١٠: ١٣٨ ، بدائع الزهور ١: ١٧٢ ، ٢١٠ ، أدباء حلبون للدكتور جواد علوش ص ١٧٠ صفي الدين الحلي لياسين الأيوبي ، صفي الدين الحلي للدكتور محمود رزق سليم .

(٢) أدباء حلبون ص ١٧٠ .

(٣) الديوان ص ١٤٠.

(٤) الديوان ص ٢٨٠ .

القراءة والكتابة منذ الصغر ، ودرس علوم اللغة العربية وآدابها في شبابه، ومارس الفروسية والصيد والألعاب المسلية كالنرد والشطرنج .

وحدث في الحلة نزاع شديد على الرياسة والإمارة، لاسيما بين أخوال صفي الدين من بني محاسن، وآل أبي الفضل، وحينما قُتل خاله عبد الله بن حمزة بن محاسن غيله وهو في مسجده رثاه بقصيدة حارة، وحثَّ قومه على أخذ الثأر. وقد وقعت معركة حامية بين الطرفين قرب بغداد سنة ٧٠١هـ عُرفت بمعركة «زوراء العراق»، شارك فيها صفي الدين الحلي وأبلى فيها بلاء حسناً واثخن الجراح في الأعداء،وأبدى شجاعة نادرة وبسالة فائقة، ونظم قصيدة حماسية أولها (١):

سلي الرماحَ العوالي عن معالينا
واستشهدي البيضَ : هل خاب الرجا فينا
لما سعينا ، فما رقّتْ عزائمنا
عمّا نروم ، ولا خابتْ مساعينا
يا يومَ وقعةِ زوراء العراق وقد
دِنّا الأعادي كما كانوا يَدِينونا

ترك صفي الدين الحلة ــ بعد أن أقلقَ الخصوم راحته وتهددوا حياته ــ ونزل ماردين،واتصل بملكها المنصور نجم الدين أبي الفتح غازي بن أُرتُق التركماني ونظم في مدحه تسعاً وعشرين قصيدة في كل قصيدة منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم يبتديء به في كل بيت منها وبه يختتم البيت وسَمّى تلك القصائد بـ « درر النحور في مدائح الملك المنصور » ومدحه أيضاً بقصائد أُخرى أودعها ديوانه .

وأشار إلى الحفاوة والتكريم والتقدير التي لقيها من بني أُرتق في مقدمة ديوانه ، فقال : (٢) « ثم جرت بالعراق حروبٌ ومحن ، وطالت خطوبٌ

(١) الديوان ص ٢٠ .
(٢) الديوان ص ١٠ .

وإحن ، أوجبت بُعدي عن عريني ، وهجرَ أهلي وقريني ، بعد أن تكمّلَ لي من الأشعار ، ماسبقني إلى الأمصار . وحدَّثَ به الركبان في الأسفار. فلما أحسنت إليَّ مساءات الزمان ، وأرضاني سُخط الحدثان ، بحطّ رحالي بفناء الملوك لبني الملوك ، كهف الغني والصعلوك ، فخرِ الملوك الأواخر والأوائل ، ملوك ديار بكر بن وائل الأرتُق راتقي فَتقَ الدين، جابري كسر الإسلام والمسلمين . لا زالت أيامُهم باسمةَ الثغور ، ماسرت الريح الجارية ، وجرت الروح السارية ، وتطايرَ ورَق الأشجار ، وتشاجر ورْق الأطيار .

فقيّدَتني عندهمْ أنعُمٌ هُنّ قيود الآملِ السائحِ
ووكّلَتْ فكري بمدحي لهمْ مكارمُ المنصورِ والصالحِ

فمذ ثَبّتوا بالإحسان قدمي ، وصانوا عن بني الزمان وجهي ودمي حمدت لقصدهم مطايا الأمان ، وقلت لقلبي لاخيلَ عندك تُهديها ولا مال ، ونظمت في مدحِ السلطان الأعظمِ ، مستخدمِ السيفِ والقلم ، ربِّ المناقبِ والمغازي ، الملك المنصور نجم الدين أبي الفتح غازي ، أطابَ الله مثواه ، وقدّس ثراه قصائدَ موسّلةً مجملةً ومفصلةً ؛ فالمجملة ما جعلته كتاباً مفرداً كالديوان إذ لا يحتمل الزيادة والنقصان ، لكونه تسعاً وعشرين قصيدة ، كل منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم ، يُبدأ في كل بيت منها به وبه يُختتم ، ووسمته بدرر النحور ، في مدائح الملك المنصور ، والمفصلة ما انتخبت أحسنها حسَبَ الإمكان ، وأودعته أثناء هذا الديوان » .

وعاش صفي الدين زمناً طويلا في كنف الارتقيين ، ولاسيما المنصور وابنه الصالح الذي نظم فيه جملة من القصائد سماها بـ «الصالحيات» واشتغل بالتجارة ، وطاف في عدة أقطار ، ومدح جماعة من ملوكها وأمرائها ، ومكث في مدنها الرئيسة مدداً غير قليلة ، مثل دمشق وحلب في الشام ، واياس في أرمينية الصغرى المعروفة أذ ذاك بسيس ، ودخل بدليس . وزار

الحجاز ، وادى فريضة الحج ومدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشعر جيد من ذلك قصيدته التي يقول في مطلعها (١) :

كفى البدر حسناً أن يقالَ نظيـرها فيزهى ، ولكنّا بذاك نضيـرها

وارتحل الى القاهرة ، وشاهد معالمها ، واتصل بأدبائها وعلمائها أمثال الشاعر ابن نباتة المصري ، والمؤرخ صلاح الدين الصفدي ، والقاضي علاء الدين بن الاثير . ولقي حفاوة بالغة وترحيباً حاراً من الجميع ، ومدح الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطـان مصر بقصيدة بائية عارض بها قصيدة المتنبي التي أولـها (٢) :

بأبـي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحريـر جلابيـا

ومطلع قصيدة صفي الدين (٣) :

أسبلنَ من فوق النهـودِ ذوائبـا فجعلنَ حبّاتِ القلوب ذوائبا

وبقي متجولا ، يتردّد الى حلب وحماة ودمشق ، ثم يعود الى ماردين ، وعاد في آخر عمره الى بغداد ، واستقر فيها ورآه الفيروز أبادي مؤلف القاموس وقال (٤): «اجتمعت سنة ٧٤٧هـ بالاديب الشاعر صفي الدين بن سرايا الحلي - رحمة الله - بمدينة بغداد ، فرأيته شيخاً كبيراً ، وله قدرة تامة على النظم والنثر ، وخبرة بعلوم العربية والشعر ، فغزله أرق من النسيم ، وأدق من المحيا الوسيم ، ولكنه كان في حالة رثة ، وهيأة قبيحة ، وعمامة وسخة ، ووجهه أقبح من الكل ، ومن ير صورته لايظن أنه هو الذي ينظم الشعر الذي هو كالدر في أصدافه» .

واصيب صفي الدين بالتهاب المفاصل ، وكان يعاني منه ألماً شديداً ، وفي سنة ٧٥٠هـ انتشر الطاعون ببغداد وغيرها من البلاد ، فأتى عليه عن ثلاث وسبعين سنة من العمر .

---

(١) الديوان ص ٧٣ .
(٢) شرح ديوان المتنبي ١ : ٨٨ .
(٣) الديوان ص ٩٥ .
(٤) شعراء الحلة أو البابليات للخاقاني ٣ : ٢٧٢ .

آثاره

لصفي الدين تآليف في الادب واللغة منها :

١ ــ العاطل الحالي والمرخص الغالي : يبحث في فنون الشعر العامي، وهو مطبوع .

٢ ــ نتائج الالمعية في شرح الكافية البديعية : منها نسخة في مكتبة الاسكوربال باسبانيا واخرى في دار الكتب المصرية .

٣ ــ أغلاطي : وهو معجم بالاغلاط اللغوية الشائعة في عصره ، منه أقسام بمكتبة الاسكوريال باسبانيا .

٤ ــ الدر النفيس في أجناس التجنيس : منه نسخة بدار الكتب المصرية

٥ ــ الخدمة الجلية : وهو في وصف الصيد بالبندق .

٦ ــ ديوان صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء .

٧ ــ رسائله : طبع بعضها مع ديوانه (طبعة النجف ١٩٥٦) .

٨ ــ ديوان شعره : يحتوي على أكثر من عشرة الاف بيت في أثني عشر باباً، في كل باب فصلين أو أكثر ، وجملة الفصول ثلاثون والابواب هي :

الفخر والحماسة ، المديح ، الطرديات ، الوصف ، الاخوانيات ، المراثي الغزل ، الخمريات ووصف الازهار ، الشكوى والعتاب ، الاستهداء والاعتذار ، الالغاز ، الملح والاهاجي ، الادب والزهد .

والحق بالديوان « الكافية البديعية في المدائح النبوية » وهي في ١٤٥ بيتاً على وزن وقافية بردة البوصيري . وديوانه «درر النحور في امتداح الملك المنصور » .

شعره :

اشتهر صفي الدين الحلي بالشعر أكثر من اشتهاره بالنثر مع أنه قد برز في كليهما . وعده النقاد والباحثون أشعر شعراء عصره لما امتاز به شعره من خصائص وسمات على صعيدي المعاني والالفاظ .

ان أغلب مدائحه في الملوك الارتقيين ، وملوك حماة ، والناصر قلاوون وعلاء الدين بن الاثير ،ولم يخرج فيها عن مدائح الذين سبقوه من وصف الممدوح بالسخاء والشجاعة والاباء وغيرها من المعاني المطروقة ، وكثيراً ما يبالغ في هذه الصفات ، من ذلك قصيدته التي مدح بها الملك الصالح بن الملك المنصور الارتقي وقد أرسلها من بغداد اليه ومطلعها (١) :

ماهبّتِ الريح الاّ هزّني الطربُ اذ كان للقلبِ في مرّ الصبا أربُ

ومنها :

ياابن الذين غَدَتْ أيامهم عبرا
بين الأنام، بها الأمثالَ قد ضربوا

كالأسدِ إن غضبوا ، والموت ان طلبوا
والسيفِ ان ندبوا والسيلِ ان وهبوا

ان حكّموا عدلوا ،أو أملوا بَذَلوا
أو حوربوا قتلوا ، أو غولبوا غلَبوا

ولصفي الدين – عدا بديعيته الكافية – عدّة قصائد في المديح النبوي لم يأت فيها بجديد، فهي مأخوذة من السيرة النبوية التي قرأها في كتب التاريخ والسير ،ونراه يكثر فيها من الاستغفار وطلب العفو والصفح . من ذلك قوله حينما زار المدينة المنورة: (٢)

بكم يهتدي، يانبيّ الهُدى وليٌ إلى حُبكمْ ينتسب

---

(١) الديوان ص ١٩٧ .

(٢) الديوان ص ٨٦ .

به يكسب الأجرَ في بعثـه ويخلص من هولِ ما يكتسبْ
وقد أمَّ نحوكَ مستشفعـاً الى الله ،ممـا إليـه نُسبْ

ونرى صفي الدين يخصص قصائد كثيرة للغزل إلى جانب الأبيات التي جعلها بين يدي المديح ، وهو يعفُ في بعضها ويسفُ في بعضها الآخر ويصبح حليف نزوة وأسير شهوة، مقلداً الشعراء المجان والمتهتكين ، وقد عارض ابن حجاج في بعض قصائده الفاضحة. وأظهر فيها مفاتن الجسد بشكل صارخ ومبتذل .ونورد هنا بيتين من غزله العفيف الرقيق :(١)

ياضعيفَ الجفونِ أضعفتَ قلباً كان قبلَ الهوى قوياً مليـا
لاتحاربْ بناظريك فـؤادي فضعيفانِ يغلبـانِ قـويّاً

وكان لصفي الدين ذوق جميل في الوصف، وأداة طيعة في التصوير البارع ،فنراه يجيد في وصف الحدائق والمروج ،ومباهج القصور، ومجالس اللهو والشراب ،وأدوات الطرب والغناء، والحيوانات اللطيفة، والطيور البديعة .وديباجته في هذا الوصف مشرقة، وألفاظه سهلة، وصوره واضحة من ذلك قوله في وصف مغنية بالعود :(٢)

أشجتكَ بالتغريبِ في تغريدِها فظننتَ معبد كان بعضَ عبيدها(٣)
وشدتْ فأيقظتِ الرقودَ بشدوها وأعارتِ الأيقاظَ طيبَ رقودها
خودٌ شدَتْ بلسانهـا وبنانهـا حتى تشابـه ضربها ونشيدهـا
فكأنَّ نغمةَ عودها في صوتهـا وكأنَّ رقّةَ صوتها في عودِها
فطنَتْ لأبعادِ الشدودِ فناسبتْ بالعدلِ بين قريبها وبعيدِها(٤)

(١) الديوان ص ٤٠٠ .
(٢) الديوان ص ٢٧١ .
(٣) معبد بن وهب مغن مشهور في العصر الأموي ، نشأ في المدينة ، ولما ظهر نبوغه في الغناء رحل إلى الشام واتصل بأمرائها وارتفع شأنه ، وتوفي سنة ١٢٦هـ .
(٤) الشدود : لعله يريد مفاتيح الأوتار .

كمُلتْ صنائع وضعها فكأنّما ورثتْ أصولَ العلمِ عن داودها
تَسبي العقولَ فصاحةً وصباحةً فتحار بينَ طريفها وتليدها
من لهجةٍ مكسوبةٍ أو بهجةٍ منسوبةٍ تحلو لعينِ حسودِها
إني لأحسد عودها إن عانقَتْ عطفيهِ أو ضمته بين نهودها
وأغار من لثمِ الكؤوسِ لثغرها وأذوب من لمس الحُليْ لجيدها

وعقد علاقات وثيقة مع أصاقاء اكتسبهم بعد خروجه من الحلة ، مسقط رأسه ، ومدرج صباه ، ومسرح فتوته ، ومعهد أنسه ولهوه . وسكن ماردين في ظل الملوك الأرتقيين ، وتعرّفَ على أُناس كثيرين في الشام ومصر والحجاز حين تجواله فيها ، ونظم شعراً كثيراً وقد ثبّته في الباب الرابع من ديوانه . وسمّاه « في الاخوانيات وصدور المراسلات » من ذلك قصيدة أرسلها إلى الشيخ مهذب الدين محمود بن يحيى النحوي الحلي ، قال فيها : (١)

بكيت لفقدِ الأربعِ الخضرِ منكم
على الرملةِ الفيحاءِ بالأربعِ الحُمرِ
فكيف بقي إنسان عيني ، وقد مضى
على ذلك الإنسانِ حينٌ من الدّهرِ
سقى روضةَ السعديْ من أرضِ بابلٍ
سحابٌ ضحوك البرقِ منتحب القطرِ
وحيا الحيا مغنىً قضيت بربعه
فروضَ الصبا ما بينَ رملةَ والجسرِ
وربَّ نسيم مرّ لي من دياركم
ففاحَ لنا من طيّهِ طيّب النشرِ

(١) الديوان ص ٢٨٥ .

وأذكرني عهداً ، وما كنت ناسياً
ولكنه تجديد ذِكرٍ على ذِكرِ

وشارك في فن الرثاء ، فله نحو ثلاثين قصيدة ، رثى بها الملوك والأمراء والاقرباء والأصدقاء ، وقد بان عليه الجزع والألم ولاسيما في رثاء خاليه صفي الدين بن محاسن وجلال الدين عبدالله بن حمزة بن محاسن ، ونراه يتفنن في بعض مراثيه كما فعل في قصيدته التي رثى بها عماد الدين اسماعيل ابن علي صاحب حماة سنة ٧٣٢ هـ ، مسمطاً لقصيدة ابن زيدون النونية ، قال في أولها (١):

كانَ الزمان بلقياكُم يُمنّينا وحادِث الدّهرِ بالتفريقِ يثنينا
فعندما صدقتْ فيكم أمانينا أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيبِ لُقيانا تجافينا

ولصفي الدين أبيات ومقطعات في الادب والحكم ، وفي الزهد والتقشف يمكن الرجوع اليها في ديوانه .

ان شعره يتراوح بين مجموعة صادرة عن فطرة وطبع سليم ، وأخرى غلب عليها التكلف والصنعة ، ويبدو أنه تابع في المجموعة الثانية أولئك الذين قيدوا أنفسهم بالصناعة واراد أن يتفوق عليهم فجنس وطابق واقتبس وضمن وقابل ونشر وطوي وقسم ، وتعمد التشبيه والاستعارة ، وتلاعب بالحروف ، فأهمل واعجم ، والتزم مالم يلزم ، وبنى أحياناً على لفظ واحد يردده في روي كل بيت مع أختلاف المعنى ، وابتدع الموشح المضمن مثل قوله (٢) :

وحقّ الهوى ماحلت يوماً عن الهوى
ولكنّ نجمي في المحبة قد هوى

(١) الديوان ص ٣٥٩ .
(٢) الديوان ص ٤٥٣ ، وتنظر الأبيات المضمنة في ديوان أبي نواس ص ٢٢٧ .

وما كنت أرجــو وصلَ من قتلي انتــوى
واضنى فــؤادي بالقطيعة والنوى
ليـــــس في الـــهوى عجـــــب
ان أصــابني النصـــــب
(حـــامل الهـــوى تعـــــب
يستفـــزه الـــــطرب)
أخو الحبِّ لاينفكُ صبــاً ميتـــــما
غريــقَ دموعٍ قلبه يشتكي الظما
لفرط البكا قد صار جلداً واعظمــــا
فلا عجب أن يمزجَ الدمعَ بالدمـــا
الغـــــــرام أنحلـــــــه
إذ أصـــــاب مقتله
(ان بكـــــى يحـــقُ لـــــــه
ليـــس مـــا بـــهِ لعـــــب)
أما شعره الذي سلم من الصنعة والتكلف فيتميز برقة الالفاظ وسهولتها ، ووضوح المعاني وصحتها ، من ذلك قوله (١)
قـــد نشرَ الزنبـــق أعلامــــه
وقال : كل الزهر في خـــدمتي
لو لم أكـــنْ في الحسنِ سلطانــــه
مارفعت من دونهـــم رايتـــي
فقهقـــه الـــورد بـــه هازئـــاً
وقالَ : ماتحـــذر من سطوتي

(١) الديوان ص ٥٥٤ .

وقال للسوسنِ : ماذا الذي
يقوله الأشيب في حضرتي
وامتعضَ الزنبق في قوله
وقال للأزهار : ياعصبتي
يكون هذا الجيش بي محدقاً
ويضحك الورد على شيبتي

برز في الموصل – المدينة التي ثوى فيها الأديب المشهور أبو تمام – العشرات من الشعراء، أمثال: مخلّد بن بكار، والسري الرفّاء، وابن حمدان وابن مُسهر، وابن أبي عصرون، وابن الأرْدَخل، وابن الحلاوي وابن عَدْلان وابن دانيال .. وابن زيلاق الذي نحـن بصدد دراسة حياته وشعره (١).

هو محيي الدين يوسف بن يوسف بن يوسف بن سلامة بن ابراهيم الهاشمي الموصلي المعروف بابن زيلاق، فهو عربي الأصل، ينتهي نسبه الى العبـاس ابن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد أمسكت المصادر عن ذكر نشأته ودراسته وسيرته، واكتفت بذكر السنة التي ولد فيها وهي سنة ٦٠٣هـ بمدينة الموصل، وعمله وهو كتابة الأنشاء للدولة، ومقتله الذي كان في العاشر من شعبان سنة ٦٦٠هـ حين ملك هولاكو الموصل، وبعث الرعب والهلع في نفوس قاطنيها، وفتك بالكثيرين منهـم .

تذكر كتب التاريخ أن ابن زيلاق كان شهماً غيوراً، وحينما داهم المغول الموصل تألم كل الألم ووقف بجانب ملكه الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ في الدفاع عن مدينته، وكان قائد المغول يسمى أسنداغو، ولما طال حصار الموصل وتعذّرت الأقوات طلب الملك الصالح الأمان له ولأهل البلد، وترددّت الرسل بينهما، فأجاب الى ذلك ، ودخل العسكر إلى البلد وقبضوا على الملك الصالح، وقتلوا ولده علاء الدين، وعلقوا رأسه على باب الجسر، ومن جملة من قتل في هذه الحادثة محيي الدين بن زيلاق (٢).

---

(١) ترجمته في ذيل مرآة الزمان ١ : ٥١٣ – ٥٢٤ التذكرة الفخرية ص ١٩٢ ، فوات الوفيات ٤ : ٣٨٤ ، عيون التواريخ ٢٠ : ٢٧٩ ، البداية والنهاية ١٣ : ٢٨٤ ، الحوادث الجامعة ص ٣٤٨ ، عبر الذهبي ٥ : ٢٦٢ ، شذرات الذهب ٥ : ٣٠٤ ، عقود الجمان للزركشي (مخطوطة الفاتح ٤٤٣٤) ص ٣٥٩ .

(٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ١٤٠ .

واذا كانت المصادر قد غبنت ابن زيلاق في تفصيل حياته وسيرته، فانها لم تغبنه في أدبه، خاصة كتاب ذيل مرآة الزمان لليونيني، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، اذ أوردا له أكثر من مئتي بيت من الشعر إلى جانب المقطوعات النثرية.

أكثر ابن زيلاق من ذكر مدينة الموصل في شعره ،وتغنى بها، واثنى عليها، حيث نراه يقول :(١)

ومحاسن الحدباء مشرقةٌ على كلِّ البلادِ، لها الفخار الأفضل
ياساحةَ الحدباءِ تربكِ إثمدٌ للناظرين ، فما الدّخول فحومل ؟
هبني أحاول غيرَها، أو أبتغي عوضاً عن الأوطانِ أو أتبدّل
فعنِ الذين عهدتهم بفنائها أهلي وجيراني بمن استبدل

وكان كثير التردد على ديار الشام، لاسيما دمشق ،ويبيت في الجامع الأموي، وله في وصف هذه المدينة ،وبيان جمالها ومحاسنها وأطايب أجوائها قصيدة لطيفة ،نذكر منها هذه الأبيات :(٢)

أنَّى التفتَّ فجدولٌ متسلسلٌ أو جنةٌ مرضيةٌ أو جوسقٌ
يبدو لطرفكَ حيث مالَ حديقةٌ غناء نور النّورِ منها يشرق
يشدو الحمام بدوحها فكأنما في كلِّ عودٍ منه عودٌ مورق
واذا رأيتَ الغصنَ تُرقصه الصبا طرباً رأيتَ الماءَ وهو يُصفّق

لقد حظيت مدينة دمشق – فيما أرى – أكثر من غيرها من الحواضر الاسلامية بقصائدشعرية،في وصف مباهجها ومفاتنها وخيراتها،(٣) ولم يكن غريباً أن يشارك ابن زيلاق الموصلي قائليها في هذا الوصف فهو يراها جنة وارفة

---

(١) فوات الوفيات ٤ : ٣٩٤ .
(٢) نفسه ٤ : ٣٨٤ .
(٣) ينظر كتاب (نزهة الأنام في محاسن الشام) لأبي البقاء عبدالله بن محمد الدمشقي .

الظلال، تنساب خلالها الجداول، وتعبق في ربوعها فوائح الازهار وتشدو على أفنان أشجارها الأطيار. وقد أبدع في تصوير منظر الغصن الراقص بدغدغة ريح الصبا وتصفيق الماء المنساب بخريره الساحر.

ولابن زيلاق الموصلي شعر في الغزل جارى فيه شعراء عصره في خطاب المذكر، وقد بدا عليه البرود ومسحة الصنعة مثل، قوله: (١)

ياقمراً أصبحتْ محاسنُـــه ... تنهب ألبابنا وتسترق
تجمعتْ فيكَ للورى فتنٌ ... على تلافِ النفوسِ تتفق
طرفٌ كحيلٌ، ووجنةٌ كسيت ... حمرةَ دمعي ،ومبسمٌ يقَق
جالتْ على عطفهِ ذوائبه ... كالغصنِ زانتْ فروعه الورق
رأوك لي جنةً معجلةً ... ما وجدوا مثلها ولا رزقوا
هم حسدوني عليك فاختلفوا ... بكلِّ زورٍ عليك واختلقوا
سعوا بتفريقنا فلا اجتمعوا ... على وصالٍ يوماً ولا اتفقوا
فأين كانوا وأدمعي بددٌ ... تركض في وجنتي وتستبق
ومقلتي حشوها السُّهاد واحـ ... ـناء ضلوعي تعتادها الحرق

ان أغلب شعره الذي وصل الينا في الغزل عفيف وبعيد عن الفحش والبذاءة والرذيلة، فهذه القصيدة التي ذكرنا طرفاً منها تتجلى فيها الوحدة الموضوعية ، وحسن انسجام الكلمات من خلال الموسيقى المحببة المتلائمة مع تفعيلات البحر المنسرح.

وقد أدلى ابن زيلاق بدلوه مع الشعراء الذين نظموا الموشحات التي راج سوقها بعد القرن السادس للهجرة، وشاع نظمها في المشرق بعد شيوعها في المغرب ، ولكنه – في رأينا– لم يوفق في هذا اللون من النظم كما وفق في نظم الشعر العمودي ،اليكَ جزءاً من موشحة له (٢):

---

(١) فوات الوفيات ٤: ٣٨٨ .

(٢) فوات الوفيات ٤: ٣٩٢ .

حثَّ شمس الكؤوس يابدر فالندامى نجوم
واسقنيها كأنها تبر من بنات الكروم
ضحكت في ثغورها الزهر ببكاء الغيوم
وتغنت بأطيب اللحنِ صادحات الشجر
ناطقات بألسنٍ عجمِ طاب شرب السحر
حثّها بيننا رشأ وسنان نلت منه الأماني
ناعس الطرف بابلي الأجفان باسم عن جمان
قد سكرنا من لحظه الفتان قبل خمرِ الدنان
رب خمرٍ شربت من جفنِ واجتنيت الزهر
من خدود تحمى عن اللثمِ بسيوف الحَوَرْ

ولابن زيلاق أبيات في الحكمة تتراءى منها السطحية كقوله(١):

والدهر لايبقى على حالاته فيجور أحياناً وطوراً يعدل
صبراً فكل ملمة من بعدها فرج، وكل عسيرِ أمرٍ يسهل

أما نثره فهو يجري على طريقة القاضي الفاضل التي تعتمد على البديع ولا سيما الجناس ، كما تعتمد على التنظير ، من ذلك قوله في رسالة (٢): «فقدمناها،والفصل ربيع ،ومنظر الروض بديع ،والرُّبى مخضرة أكنافها، ماعسة أعطافها . تبكي بها عيون السحاب فتتبسم ، وتخلع عليها ملابس الشباب فتتقمص وتتعمم ، فما أتينا على مكان إلا وجدنا غيره أحق بالثناء وأجدر ، ولاأفل بدر من الزهر إلا بزغت شمس فقلنا هذا أكبر حتى اذا بلغت النفس أمنيتها، وأقبلنا على دمشق فقبلنا ثنيتها، رأينا منظراً يقصر

(١) فوات الوفيات ٤ :٣٩٥ .
(٢) فوات الوفيات ٤ :٣٨٦ .

عنه المتوهم، ويملأ عينَ الناظر المتوسم. ظِلٌ ظليل، ونسيمٌ عليل ومغنى بنهاية الحسن كفيل».

هذا ابن زيلاق الموصلي، شاعر لامع ، وناثر بارع ، ولكن حظه غير راجح ، وهو القائل (١):

واذا الفتـى قلّت عناية حظـّـه   كانتْ محبته ذنوباً أجـمـع

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ٥١٧

شهاب الدين التلعفري ٥٩٣ ـ ٦٧٥هـ

شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود الشيباني، (١) ولد في تل أعفر وقيل في الموصل في الخامس والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٩٣للهجرة. لقب بالتعلفري نسبة إلى تل أعفر، وهي مدينة بين الموصل وسنجار في شمال العراق.

تلقى التلعفري العلوم والآداب في الموصل، واتصل بعلمائها وأدبائها وأخذ عنهم ،وتفتحت قريحته الشعرية ولمّا يتجاوز العقد الثاني من عمره، وكان ذكياً فطناً «حافظاً للاشعار وأيام العرب وأخبارها» (٢).

شد التلعفري رحاله واتجه صوب الشام، واتصل بالملوك الأيوبيين، ومدحهم ،وأثنى عليهم ،ونال عطاءهم منهم الملك الأشرف موسى بن أبي بكر العادل صاحب دمشق (ت٦٣٥هـ) وكان هذا الملك شاعراً جواداً،يعجبه الشعر الجيد ،ويصل صاحبه بصلات سنية ،وكان نصيب التلعفري من هذه الصلات كبيراً ،ولكنه أتلفها في حانات الخمر وعلى موائد الميسر وقدصرّح بذلك في شعره فقـــال: (٣)

أقلعت إلاّ عـــن العقـــــارِ وتبـــت إلاّ مـــــن القمـــــارِ
فالكأس والقَمْـرُ ليـس يخلــو منها يمينـــي ولا يســـــــاري

ضجر الملك الأشرف من هذا السلوك المنحرف، وطلب منه أن يُحسن سيرته ،ويقلع عن معاشرة أرباب الخلاعة والمجون، ويترك الخمر ،وينصرف

(١) ترجمت في الوافي بالوفيات ٥: ٢٥٥ ، فوات الوفيات ٤: ٦٢ ، وفيات الأعيان ٧: ٤٠، ذيل مرآة الزمان ٢: ٢٢٨ ، البدر السافر ص ١١٧ ، تاريخ ابن الفرات ٧: ٧٦ ، النجوم الزاهرة ٧: ٢٥٥ ، المختصر في أخبار البشر ٢: ٣٢٠ ، الفلاكة والمفلوكون ص ٨٨ ، كنز الدرر ٧: ٢٩٨ الأدب في بلاد الشام ص ٣٥٦ تاريخ الأدب العربي في العراق ١: ٣١٢ . وقد طبع ديوانه في بيروت سنة ١٣١٠هـ وأعيد طبعه سنة ١٣٢٦هـ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧: ٢٥٥ .

(٣) الديوان ص ١٨ .

عن الميسر، ولكنه لم يرتدع وبقي على ماهو عليه، سادراً في غيّه وضلاله وعبثه ،مما دعا إلى غضب الملك عليه وطرده من مملكته .

انتقل إلى حلب، واتصل بملكها الناصر يوسف بن محمد بن غازي (ت٦٤٨هـ) وحظي باكرامه ،وخصّص له مبلغاً من المال يتقاضاه كلّ شهر ، ونصحه بترك المقامرة التي حرمها الاسلام لما لها من ضرر وكذلك طلب منه الاقلاع عن شرب الخمرة ، فلم يأخذ بالنصيحة ، وظل يقامر بكل شيء يملكه ، حتى خفافه وثيابه ، وقد تهكم به الشاعر شرف الدين سليمان بن بنيمان الإربلي (ت٦٨٦هـ) في مجلس الملك الناصر ، وقال قصيدة عرض فيها مقامرته بخفافه وثيابه، واعتذر في خاتمة قصيدته من هجاء هذا الشاعر المنحرف عن جادة الرشد والصواب (١) .

ولم تتغيّر أخلاق الشاعر ولم يهجر المقامرة، وساءت حالته ،حتى بات يعيش في فقر مدقع وأمره الملك الناصر أن يقف عند حدّه ، ونُودي في حلب: من قامر مع الشهاب التلعفري قطعت يده (٢)، وحينما سمع هذا النداء ضاقت الارض به وخشي العواقب ،وقال (٣) :

ينشرح الصدر لمــن لاعبنــي والارض بي ضيقـة فروجها

خرج التلعفري من حلب — بعد أن قطع الملك الناصر المعونة عنه— وأخذ يتنقّل في ديار الشام ومصر مستجدياً بشعره، وقد وخط الشيب مفرقه وأذبلت جسمه الخمرة وسهر الليالي، وأدرك أن الذين عاشرهم ونادمهم لاخير فيهم ولانفع ،فقـال: (٤)

سلامٌ على عصرِ الشباب الذي مضى وروحي بضافي ظلّـه ما تملتِ
عرفت بها هذا الزمانَ وأهلــه فرحت بشيبي غافراً كلَّ زلّـةِ

---

(١) فوات الوفيات ٢: ٥٧ ، النجوم الزاهرة ٧: ٣٧٢ .

(٢) فوات الوفيات ٤: ٦٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧: ٢٥٧ .

(٤) الديوان ص ٨ .

بلوت الورى خُبراً فلم أرَ فيهم خليلاً سديداً عنده سد خلّتي

واستقر الشاعر – بعد تعب وضني – في حماة، واحتمى بالملك المنصور محمد بن محمود (ت٦٨٣هـ) ونادمه وسامره، وقدّم بين يديه مدائحه ونال جوائزه .

وحينما تجاوز الثمانين من العمر وأحنت السنون ظهره، وأدرك أن نهايته قد قربت، قال: (١)

أحماة ان عهودَ أهلكِ أحكمتْ أسبابُها عندي ،فليستْ تنقص
لكنما أزفَ الرحيلُ وها أنـــا والعيسُ تحدُى مُنشدٌ ومعرّض
أرضٌ أروح بغيرها متعوّضـاً أترى ترى عيني بمن تتعوّض !

وندم على أفعاله السابقة، وتصرفاته الشاذة التي أغاضت الكثيرين،وردّ على أولئك الذين سخروا منه ورموه بالمعصية ،فقال: (٢)

من قــال عنــي بأنـــي يوم القيامـــة أخســـــر ؟
وانــــــي بذنـــوبي إلى جــهـــنم أحـــشـــر ؟
مــر ياجهـــول ،ودعنـــي أنـــا بـربـــي أخبـــر

إختلفت الروايات في المكان الذي توفي فيه، فقيل: ارتحل إلى نصيبين ومكث فيها قليلاً وتوفي في ثالث عشر سنة ٦٧٥ للهجرة،(٣) وقيل:توفي في عاشرشوال سنة ٦٦٥ للهجرة بمدينة حماة .(٤) وأنشد قبيل وفاته : (٥)

إذا أمسى فراشي مـــن تـراب وبتُّ مجاورَ الـــربّ الرحيم
فهنّوني أخلائــي وقولـــوا لكَ البشـــرى قدمتَ على كريم

---

(١) الديوان ص ٢٤ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ٣:٢٢٨ .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٣:٢٢٨ .
(٤) وفيات الأعيان ٧:٤٥ ، النجوم الزاهرة ٧:٢٥٥ .
(٥) ذيل مرآة الزمان ٣:٢٢٨ .

شعره :

وصل إلينا ديوان شهاب الدين التلعفري، وهو صغير، لايحوي كل شعره، اذ نجد في المصادر مقطوعات غير واردة في الديوان،وأبرز ما فيه من أغراض: الغزل، والخمر،والوصف، والحنين إلى الوطن ومطالع لقصائد في المديح.

أما غزله فرقيق ومحبب إلى النفس، يكثر فيه من ذكر القدود والخدود والألحاظ والحواجب وغيرها من مواطن الحسن والجمال ،من ذلك قوله: (١)

رشيق التثني والمعاطف ِ ألعس الم   راشف ِ يُصمي طرفُه حين يرمق
حمى بحسام اللحظ خداً مورّداً   غدت منه أكمام الشقيق تشقّق
له ناظرٌ في ضمنه ِ وهو أسودٌ   عدوٌ لأرباب ِ الصبابة ِ أزْرَق

لقد وصف الشاعر تثني المحبوب في سيره، كما وصف فمه وطرفه وخدّه وجمال خلقها، وبديع صنعها . وأبان عن أثرها في النفوس وفعلها في حبات القلوب .ومن شعره في هذا المجال قوله: (٢)

حميتَ شقيقَ الخدُ بالمقلـه الكحْلا
وثقّفت رمحَ القد بالطعنة ِ النجلا
وأوترتَ قَوْسَي حاجبيكَ ففوّقتْ
من النظر السامي إلى مقلّي نَبْلا
عجبت لجفنكَ التي تَشطتْ لنا
لتقتلنا، وهي المضعّفة الكسلى

وغالباً ما يقترن الغزل عنده بالخمرة ويصاحبها وهو أحد رواد الفلسفة الخيامية التي تدعو إلى ارتشاف الخمرة والتمتع بملذات الحياة قبل فوات

(١) الديوان ص ٢٥ .

(٢) الديوان ص ٥٠ .

الاوان، وقد صرف من أجلها – إلى جانب الميسر – ماملكت يده يقول في إحدى قصائده :(١)

نهاري كلــه قلــقٌ وفكــر ... وليلي كلّــه أرقٌ وذكــر
تقسّمني الــهوى كمــداً وحزناً ... فأمرهما لحتفـــي مستمـر
فقمْ نخطبْ عروساً بنت كـرم ... لها الاموال والالباب مهـر (٢)
عجوزٌ قد أسنّتْ وهي بكــرٌ ... ومن عجبٍ عجوزٌ وهي بكر (٣)
مُفرحةٌ يفرُ الهمُّ منهـــا ... فليس يضمّها والهمَّ صـدر
إذا برزتْ وجنح الليــلِ داج ... تبلّجَ من سناها فيه فجــر
غنيت بكأسها وبهــا ، ولمْ لا ... ومن هذين لي ورق وتبر (٤)
يطوف بها علينا بــدر تــمَّ ... منيرٌ عمـره خمسٌ وعشـر
لنا بكــؤوسه وبمقلتيـــهَ ... كما حكمَ الهوى سَكرٌ وسُكر (٥)
نردُ بها اليـه ، وهي بيــض ... ويأخذها الينا وهـي حمـر

ذكر في هذه الابيات أحدى لياليه الساحرة التي طرح فيها همومه وأحزانه ووصف الخمرة وصفاءها وبهاءها وهي تدار بيد غلام جميل الطلعة ، بهيج المحيا ، لم يتجاوز عمره خمس عشرة سنة . والملاحظ أنه لم يتجاوز في ذكره للغلام الاعجاب بالشكل الساحر ، والجسم الباهر، ولم يصل الى حد المجون والتهتك والانزلاق في مهاوي الرذائل والفواحش التي نجدها عند غيره من الشعراء المولعين بالغلمان في عصره .

وقد أثرت الطبيعة ومباهجها في التلعفري ، فراح يصفها في شعره ، ويرسم

(١) الديوان ص ١٤ .
(٢) العروس وبنت الكرم : من أسماء الخمر .
(٣) العجوز : الخمر المعتقة .
(٤) الورق : الدراهم المضروبة .
(٥) السكر : نبيذ التمر وفي التنزيل : تتخذون منه سكراً .

المناظر الخلابة التي وقعت عينه عليها في الشام ومصر بريشة دقيقة والوان زاهية ، وكانت دمشق من أحب المواضع الى نفسه ، من ذلك قوله (١) :

تلك الجنان التي حيث التفت ترى ... قصراً مشيداً به حورٌ وولدان
تدعوكَ فيها اللذات أربعـــةٌ ... بيع الحياة بها ما فيه خسران
ظلٌ ظليلٌ ، وماءٌ باردٌ غـدقٌ ... وجوسقٌ مشرف عالٍ ،وبستان(٢)

أما مدائحه في الشخصيات والملوك الذين حظي بلقياهم ونال عطفهم وحنانهم فلا أثر لها في ديوانه : وكل ما وصل الينا موشحة بعث بها الى شهاب الدين العزازي وأبياتاً أرسلها الى صديقه بمصر عز الدين بن أمسينا يسأله فيها مساعدته ، وهي (٣) :

بأبي أنتَ ، ياخليلي ، وأمـي ... أنتَ قوسي إذا رميت وسهمي
أنتَ ، والله ، سيدي لي حسامٌ ... فيه للنائبات أعظم حسمِ
كيف أخشى ذلي ولي منك عزٌ ... ماترقّتْ اليه همة نجمِ
نظمت فيكَ للمعالي عقوداً ... معجزات جميعَ نثري ونظمي
الليالي عندي ظلامٌ وظلمٌ ... بعد ذا اللّمى وذاكَ الظَلْمِ(٤)

لقد عبر في شعره عن ذاته خير تعبير ، ويكاد يكون هذا الشعر جزءاً من سيرة حياته التي قضاها في اللهو والعبث ، والجري وراء دراهم معدودات لينفقها على موائد الخمر والميسر ، والتسلي ، في أحضان الطبيعة مع رفاقه الذين شذوا عن سبل الرشاد ، وطاب لهم القصف والفساد .

وشعره على العموم سهل مأنوس ، لا غموض فيه ولا ابهام ، وكان محبو الشعر يحفظونه ويتناقلونه ، روى ابن حجة الحموي أن الاديب نور الدين علي بن سعيد الاندلسي حينما ورد الى الشام أجتمع بالشاعر

(١) الديوان ص ٤٥ .
(٢) غدق : كثير . الجوسق : الحصن ، وقيل القصر .
(٣) الديوان ص ٤١ .
(٤) اللمى : بتثليث اللام ، سمره أو سواد في باطن الشفة يستحسن . الظلم : بريق الاسنان

المشهور بهاء الدين زهير ، وسأله أن يوجهه الى طريقة يتعلم بها نظم الشعر الغرامي الرقيق فقال له (١): «طالع ديواني الحاجري والتلعفري، وأكثر المطالعة فيهما ، وراجعني بعد ذلك ، فغاب عنه مده ، وأكثر من مطالعة الديوانين الى أن حفظ غالبهما ، ثم أجتمعا بعد ذلك وتذاكرا في الغراميات» . وهذا مايؤكد أن شعر التلعفري قد راج سوقه وكثر طالبوه ، وارتاد مناهله الدارسون

ولم يستطع أن يبريء شعره من الزخارف البديعية والصور البيانية التي عم أستعمالها وشاع ايرادها في النظم ، وبخاصة الجناس والطباق والتضمين وقد أورد أبن حجة الحموي أمثلة كثيرة من شعره مستشهداً بها على الفنون البديعية التي تناولها في خزانته ، فمن الجناس قوله (٢) :

أنت خال مما يقاسيه قلبي ... من غرير له على الخد خال
كلما عزّ زاد في ذلي وحالتْ ... لي فيه ، مع الزمان ، الحال

ومن الطباق قوله (٣) :

كان عهدي بالخمر ، وهي حرامٌ ... فبماذا صارتْ لديكَ حلالا؟
أنا قصدي تقبيله ارشاداً ... كان رشفي رضابه . أم ضلالا؟
حارمني في شرح حاليه فكري ... كيف يسطو ليثاً ويعطو غزالا؟
إن أطعت الغرام فيه ، فإنني ... قد عصيت اللوّامَ والعذالا

ومن اقتباس مصطلحات الحديث قوله : (٤)

وانقلْ أسانيد الهوى عن أضلعي ... فحديث أهل العشق أنت أمينُه
أعد الحديث عن الحبيب مكرّراً ... أخبارَه ، فالصبُّ هذا دينُه

ومن الاقتباس اللغوي قوله (٥) :

عندي جوى يذر الفصيح مُبلّداً ... فاتركْ مفصّله ، ودونكَ مجمله

(١) خزانة الأدب ص ٨ .
(٢) الديوان ص ٣٢ .
(٣) ينظر تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والامارات ٣٩٣ - ٣٩٦ .
(٤) الديوان ص ٨
(٥) الديوان ص ٣٣

القلب ليس من الصحاح فيُرتجى إصلاحُه ، والعين سحبٌ مهملهْ

فقد ذكر المعاجم وكتب اللغة المشهورة وهي : الصحاح للجوهري ، والفصيح لثعلب ، والمفصل للزمخشري ، والمجمل لابن فارس، والعين للخليل .

ومن الأقتباس العروضي قوله : (١)

كم قد مضى ليل الطويلِ مديده برقيبهِ متقارباً وسريعاً

والتلعفري من المولعين بالكنايات من ذلك قوله (٢) :

وجعلتَ حظي منكَ خالاً أسوداً وأذقتني موتاً كخدِّكَ أحمرا

فسواد الحظ كناية عن سوء الحال ، والموت الأحمر كناية عن الشدة .

لقد كان التلعفري شاعراً بارزاً ، (٣) يمتلك قدرة جيدة على التعبير عن مشاعره وأحاسيسه ، وقابلية في توفير الموسيقى العذبة لشعره المتأتية من المواءمة بين الألفاظ من جهة وحروف الالفاظ من جهة أخرى إلى جانب الملاءمة بين الألفاظ والمعاني سواء كان ذلك في القصيد أم في الموشح ، بحيث تستهوي القاريء وتبعده عن السأم الذي يلاقيه في الشعر الذي أصابه العقم وضمور العواطف وخمود المشاعر .

---

(١) الديوان ص ٢٤

(٢) الديوان ص ١٧ .

(٣) ينظر تأريخ الأدب العربي ، عصر الدول والامارات ٣٩٣ - ٣٩٦

تقي الدين بن حجة الحموي ٧٦٧ – ٨٣٧هـ

تقع مدينة حماة في شمال سوريا ، لها تاريخ عريق ،وكان لها بعد الفتح الاسلامي دور بارز في مشاركة المدن المشهورة الأخرى في الحركة الفكرية،وانجاب الكثيرين من العلماء والأدباء والمؤرخين،وكان ابن حجة الحموي واحداً منهم (١) .

ولد تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله المعروف بابن حجة في حماة سنة ٧٦٧ للهجرة،وكانت أسرته محبّة للعلم والمعرفة، فوجهّت ولدها نحو الدرس والتحصيل ،وتتلمذ على تقي الدين بن الخيمي فقيه حماة وقاضيها ثم ارتحل في طلب العلم إلى الموصل ودمشق والقاهرة .

وكان ابن حجّة يشتغل في مطلع حياته – إلى جانب مثابرته على قراءة الكتب – بعمل الحرير وعقد الازرار ، وبعد ان ازدادت دائرة معارفه وتفتحّت أكمام غرسه بدأ بتأليف الكتب في مختلف الفنون، ولاسيما في الأدب والنقد والبلاغة والتاريخ .

واشتغل في دواوين الدولة في الشام ومصر، واكتسب أصدقاء كثيرين من أمثال الاديب صدر الدين بن الآدمي الذي ولي رئاسة ديوان الانشاء بدمشق، وهو الذي حفزه إلى جمع مختارات من شعر برهان الدين القيراطي شاعر مصر في زمانه سمّاه «تحرير القيراطي»، وناصر الدين محمد بن البارزي الذي اشتغل برئاسة ديوان الانشاء بمصر، وهو الذي أوحى اليه بنظم قصيدته «البديعية» التي عارض بها بديعيتي صفي الدين الحلي وعز

(١) ترجمته في الضوء اللامع ١١ : ٥٣ حسن المحاضرة ١ : ٥٧٣ ، البدر الطالع للشوكاني ١ : ١٩٤ ، شذرات الذهب ٧ : ٢١٩ ، آداب اللغة العربية ٣ : ١٢٥ ، تاريخ الأدب العربي في العراق ١ : ٨٢ ، النقد الأدبي في العصر المملوكي للدكتور عبده عبدالعزيز قلقيلة ص ١٥٢ ، تقي الدين ابن حجة الحموي تأليف محمود رزق سليم ، ابن حجة شاعراً وناقداً تأليف محمود ربداوي . تاريخ الأدب العربي في العراق ١ : ٨٢ .

الدين الموصلي.وبدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني أحد أعلام النحو في زمانه وشهاب الدين بن حجر العسقلاني الاديب الشاعر.

وقد بلغ ذروة مجده الأدبي في القاهرة حينما كان منشيء الديوان،ولا عجب فقد تفيأ ظل السلطان ورئيس الديوان ،ونعم بولاء تلميذه شمس الدين النواجي الذي بلغ من حبه لشيخه أن نسخ عنه كتابه «قهوة الانشاء» ،يثني عليه به وهذا مايدل على ما كان بين الشيخ وتلميذه من مودة ومحبة، والغريب أن النواجي انحرف عنه بعد ذلك الاختصاص وصنف«المحجة في سرقات ابن حجة (١)» وزاد في التحامل عليه.

عادَ ابن حجة في أخريات أيامه إلى بلده حماة وبقي فيها إلى أن وافته المنية في خامس عشر من شعبان سنة ٨٣٧هـ، وقد ذكر في كتابه «تأهيل الغريب» أنه أوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان:

ياغافرَ الزّلات ،يامَنْ عفوه ... يَنْهَل بالرحمة من فوق السحب
بيتكَ قد جاورتُه بحفرتي ... وأنتَ أوصيتَ بالجارِ الجنب (٢)

آثاره :

اشتغل ابن حجة في التأليف والتصنيف، ووضع كثيراً من الكتب والرسائل ومختارات الشعر والنثر، بعضها طبع، وبعضها الآخر لايزال محفوظاً ومن أشهر كتبه مايأتي : —

١ — خزانة الأدب: شرح فيه بديعيته التي مدح بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — ضمّنَ كلّ بيت من أبياتها البالغة ١٤٢ بيتاً نوعاً من أنواع البديع ،وقد استكثر من الأمثلة الشعرية والقضايا الأدبية،حتى أصبح سفراً ضخماً (مطبوع).

---

(١) توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية رقم ١٢٧٩ أدب .

(٢) الجار الجنب : جارك من غير قومك .

٢ ـ ثمرات الاوراق : فيه مجموعة قيمة من الشعر والحكايات والروايات والرسائل النثرية جمعها من كتب مختلفة (مطبوع).

٣ ـ كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام (مطبوع).

٤ ـ تأهيل الغريب ،طبع نحو سدسه مع ثمرات الاوراق.

٥ ـ قهوة الانشاء: مجموع رسائله ومكاتباته ، مخطوط بدار الكتب المصرية والأسكوريال .

٦ ـ الثمرات الشهية في الفواكه الحموية: مجموعة من أشعاره، مخطوط بدار الكتب المصرية والاسكوريال.

٧ ـ ثبوت الحجة على الموصلي والحلي :نقد لبديعيتي صفي الدين الحلي وعز الدين الموصلي، منه نسخة في مكتبه غوطـــا.

٨ـ مجرى السوابق : قصائد في الخيل والسبق .بعضها له . وبعضها لابن نُباتة، منه نسخة في برلين.

٩ ـ تغريد الصادح : منه نسخة في برلين .

وهناك كتب أخرى ذكر أسماءَها السخاوي في كتابه الضوء اللامع(١).

شعره :

عالج ابن حجة نظم الشعر في عمر مبكر ، وقد وصل إلينا شعره الذي نظمه قبل بلوغ الاربعين من العمر ، وقيّده في ديوانه الموسوم ب«الثمرات الشهية »أما شعره الذي نظمه بعد الاربعين فلم يصل إلينا منه إلا قليل وهو متناثر في كتبه المختلفة .

ويتوزع شعره بين المديح، والغزل، والوصف، والحنين والشوق، والأحاجي والألغاز ، والاخوانيات .

---

(١) الضوء اللامع ١١ : ٥٤ .

مدح النبي محمد — صلى الله عليه وسلم — بقصائد طويلة، تناول فيها سيرته وصفاته وأخلاقه وما تحلّى به من كرم الطبع ولطف الشمائل، وفي ديوانه «الثمرات الشهية» أربع قصائد احداها البديعية ومطلعها:

لـي في ابتدا مدحكم ياعُرب ذي سلـمِ
براعةٌ تستهلُ الدمعَ في العَلَمِ

ولامية عارض بها «بانت سعاد» لكعب بن زهير ومطلعها:

في قتلتي لعيون السهلِ تشهيلُ   وما لموتي عند الخدّ تقبيل

وقافيّة ومطلعها:

أغرّد في أفنانِ وجدي بكم عشّقا
فلا تذكروا من بعد تغريدي الورقا

وميمة تسمى «أمان الخائف» ومطلعها:

شدتْ بكم العشاق لما ترنّموا
فغَنّوا وقد طابَ المقام وزمزم

وفيها يقول:

نبيٌّ بدا في جبهة الدهر غرة
بسنّته البيضاءِ والشرك أدهم

سراجٌ منيرٌ قد هُدينا بنورهِ
وللشّركِ غيٌ من دجى الليلِ أظلم

ومعدِن درٍّ علّمتْنا صفاتُه
وقد نظُمتْ في عقدِها كيف ننظم

وروضة حسنٍ في ربيعٍ لنا بَدَت
ومنبتها البيت العتيق المعظّم

له النسب الأعلى فيا مادح الورى
اذا كانَ مدحاً فالنسيب المقدم(١)

وله مدائح في الشخصيات البارزة من أمراء وأعيان وقضاة، وغالباً مايجنح فيها الى المبالغة ، من ذلك قوله في مدح الأمير تمربغا الأفضل المشهور بمنطاش الأشرفي نائب حماة ،وقد انتصر في احدى وقائعه على اعداء الدولة :

مَلكٌ شجاعٌ له في الحرب مُبتدأً
قد صيّرَ القومَ في يوم اللّقا خَبرا
إنْ أبرقتْ في سما الهيجا صوارمُه
رأيتَ غيثَ دما الأبطال قد مطرا
فمن رأى منهم برقاً يلوح له
يظنُّه سيفَه الماضي قد إشتهرا
له مطالعةٌ في الحرب حين يرَى
دم العدا فوق طرس الأرض قد سطرا
إن راسلَ القومَ أنشا في رسائله
سجعات ضرب بها الهامات قد نثرا(٢)

وغزله رقيق عذب ، وأغلبه مقطعات ، أو افتتاحيات لقصائد في المديح ، من ذلك قوله في مطلع قصيدة يمدح بها العالم الجليل برهان الدين بن جماعة :

طربت عند سماعي وصفَ مغناك
فكيفَ لو كان هذا عند مغناك(٣)

---

(١) في العجز تضمين من مطالع قصيدة للمتنبي في مدح سيف الدولة ، وقد نقله مع التورية في لفظ النسيب . (ينظر شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٤٩) .

(٢) انشا : أنشأ سهلت همزته .

(٣) المغنى : المنزل .

ياظبيةً نفرتْ عن مرتعي ورعت
حشاشةَ القلبِ عين الله ترعاك
أغروكِ بي ثم قالوا كن على حذر
وا حيرتي بين تحذيري وإغراك!
بمرّ هجركِ عُجباً قد قضيتِ لنا
وشاهد الحسنِ بالإحسان حلاّك
ومذ تحجبتِ يادنيا بلا سببِ
ناديتُ يا مهجتي فارقتِ دنياكِ
إن كنتِ أدركتِ معنى الحسن من صغرٍ
فقد فهمتُ الهوى من قبل إدراك
قيدتِ أسراكِ في بحرِ الهوى عبثاً
كُفي القتالَ وفُكّي قيدَ أسراك
يافتنةَ البيضِ قلنا أنتِ غصن نقاً
وما علمنا بأنّ السُّمرَ تخشاكِ
أنشيتِ للوجدِ في خدّي من مُقلي
رسائلاً جلَّ مَنْ بالحسن أنشاكِ
رققتِ أجسامنا يوم النوى شغفاً
فما أرقَ محبيكِ وأجفاكِ!
ومذ ملكتِ عزلتِ النومَ عن مُقلي
وحاسدي كُلما أقبلتِ ولاّكِ
لولاكِ ما قلت شعراً لا ولا حفظت
عيني (قفا نبك) يوم البينِ لولاكِ
وتتجلى في شعره الذي نظمه في الحنين والشوق لوعة وأنين ، وحسرة وألم ،ولاسيما لمدينة حماة مرتع صباه ومربع هواه، مثل قوله:

ياساكني مغنّى حماةَ وحقكمْ من بعدكمْ ما ذقت عيشاً طيّبا
ومهالك الحرمانِ تمنع عبدكمْ منْ أنْ ينالَ من التلاقي مطلبا
وإذا اشتهيت السيرَ نحو دياركمْ قرأَ النوى لي في الأواخر من سبا(١)
وقد التفتُّ إليكَ يادهري بطو لِ تعتبي ويحق لي أن أعتبا
وأسرتني لكنْ بحقّ محمدٍ يادهر كنْ في مخلصي متسبّبا
ولابن حجة شعر في الوصف، ولكنه مثقل في أغلب جوانبه بالتكلف والزخرفة البديعية. أما الاخوانيات فقد استأثرت بكثير من قصائده لكثرة علاقاته الشخصية برجال عصره، ونجد في هذا اللون من النظم الشوق، والعتاب والاعتذار، والشكاية، فمثلاً حين سعى بعض الوشاة بالوقيعة بين الشاعر وصديقه المقر الأشرف الأميني صاحب ديوان الانشاء بدمشق، توقفت الرسائل بينهما بسبب ذلك، ثم تبين كذب الوشاة، فكتب الشاعر إلى صديقه قصيدة عاتبه فيها عتاباً رقيقاً، ومدحه في أعقابها، قال:

مَنْ بأسيافِ هجرهم كلّمونا
ما عليهم لو أنّهمْ كلّمونا (٢)
أغلقوا باب وصلهم فتحَ السلـ
ـه لهم بالهناءِ فتحاً مبينا
ملكوا رِقّنا فصرنا عبيداً
ليتهم بعدَ رِقّنا كاتبونا
وغدونا لهم أرِقّا ولكنْ
قد تجافوا بالهجرِ مذ رقّقونا
فطروا بالبعادِ منا قلوبا
حين أضحوا عن وصلنا صائمينا

---
(١) في الأواخر من سبا: أي من سورة سبأ.
(٢) كلموناا: جرحونا، وفي البيت جناس.

وصلـوا هجرنا وعيشِ هواهمْ
لم نَحُلْ عنهُم ولو قطعونا

حسبوا بُعدنا بسرعةِ هجر
فاستعنّا بأسرعِ الحاسبينا

إن شعره بسيط في معناه ومبناه، وقد اعتمد على البديع في ابراز صوره، وأكثر من إيراده في ثنايا شعره مثل براعة الاستهلال ،وحسن التخلص، ورعاية النظير، والتضمين، والاقتباس، والتوجيه ....ولم يسلم شعره من العيوب كالسرقة، والتكرار، والأخطاء اللغوية.

فضولي البغدادي ٩٠٠ – ٩٦٣هـ

هو محمد بن سليمان ، المعروف بفضولي البغدادي (١). تلقّب بـ «فضولي» جرياً عـلى طريقة الشعراء الذين كانوا يتلقبون في شعرهم بلقب يسمى «مخلصاً» يذكرونه في آخر بيت من القصيدة إيذاناً بالانتهاء ويشتهر كل شاعر بمخلصه الذي أختاره لنفسه، وقد ذكر الشاعر في مقدمة ديوانه الفارسي أسباب أختيار هذا اللقب ، ومن جملة تلك الأسباب: إنه أراد أن ينفرد بلقب لايشاركه فيه شاعر آخر، ويصون شعره من أن ينسب إلى غيره.

ولد فضولي في مدينة الحلة في حدود سنة ٩٠٠هـ من أصل تركي وقيل كردي، وكان أبوه مفتيا في هـذه المدينة ، ويذهب أحد الباحثين إلى أن فضولي من مدينة كركوك (٢).

كان فضولي يحب بغداد يزورها بين حين وآخر مما جعله ينتسب إليها، أما زواجه فكان من أبنة احد شيوخه المسمى «رحـمة الله» وكانت في غاية الجمال والحسن وانجبت له ولده فضلي .

نشأ في أسرة دينية، وتوجه منذ الصغر نحو الدرس والتحصيل واكتساب المعارف. واتقن اللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية، ووقف على العلوم المكتوبة بهذه اللغات،وأجاد النظم فيها،وقال فيمقدمة ديوانهالفارسي (٣) «تارة قرضت الشعر بالعربية فأطربت فصحاء العرب أجمعين، وكان ذلك سهلاً عليّ ؛ لانّ العربية لغتي في العلم والدرس ، وتاره أخرى أجريت طرفَ الطبع في ميدان التركية وأمتعت ظرفاء الترك وألباءهم بلطائف

---

(١) ينظر كتاب «فضولي البغدادي» للدكتور علي حسين محفوظ ، وكتاب «في الأدب الاسلامي، فضولي البغدادي أمير الشعر التركي» للدكتور حسين مجيب المصري ، وتاريخ الادب العربي في العراق لعباس العزاوي ٢: ٢٥١ .

(٢) الشاعر التركي الأشهر فضولي بغداد : عزيز سامي . جريدة البلد ، العدد ٥٣٧ ، ٢٨ شباط ، بغداد ١٩٦٦ .

(٣) في الأدب الاسلامي ، فضولي البغدادي ص ١٩٦ .

الشعر التركي، وما وجدت في ذلك عنتاً ولا غضاضة؛ لأنه كان مني انطلاقاً على سجيتي واستجابة لسليقتي ، وطوراً سلكت الجوهر في سمط العبارة الفارسية، فجنيت من ذلك ثمرات هي للقلب رغبات» .

وكان ذكياً كيساً ، قال أحد الباحثين عنه (١): «فضولي شاعر عظيم، انتهت اليه إمارة الشعر ورياسة الكلام في القرن العاشر، وقد فخر به الترك، وأطبقوا على تبجيله ، وأجمعت عليه آراؤهم؛ لأنه مجدد الشعر التركي ومبدعه، وحفي الفرس بآدابه ، واعتزوا به؛ لأنه حاك الشعر بالفارسية ونمنم فيها نثراً يروق البصائر، ويونق الأبصار».

كسب ودّ الكثيرين ونال رضاهم، ومن الشخصيات البارزة التي حظي بتقديرها واكرامها السلطان سليمان القانوني الذي زار العراق وقررّ له راتباً جيداً صلح به حاله وتفرغ للكتابة ونظم الشعر بعدما كان يعاني الفقر والعوز، وقد ألّف كتباً كثيرة عُرف منها إلى الآن ثمانية عشر مؤلفاً ، وهو صاحب ديوان عربي، وديوان تركي، وديوان فارسي (٢).

اعتزل فضولي الحياة، ومال إلى الزهادة ، وآثر الانقطاع إلى العبادة في بيت بسيط جوار قبر الحسين — عليه السلام — إلى أن أدركته المنية بعد اصابته بداء الطاعون سنة ٩٦٣هـ ودفن بكربلاء.

إن أبرز ملحظ في حياة فضولي أنه كان متصوفاً، يحب الجمال، ويرى فيه قدرة الله، ومن هنا نراه يتغزّل بالوجوه الصباح وقدود الملاح ، فقال(٣): «ماأبدع ذلك التكوين الكامل الذي تجلى في تناسق أعضاء حسان، لهن طلعة الحور ، وفي ملاحة شفاه كالخمر وكلام كالدر المنثور، وقدّ هفاف وجبين صبيح. وفي صفاء ذلك الجسم الغض المليح، ورقة الجوهر الطاهر

(١) فضولي البغدادي ص ٣ .

(٢) انظر مضامين كتبه ودواوينه في كتاب «في الأدب الاسلامي ، فضولي البغدادي» ص ٣٠٧ — ٣٥٣ وفضولي البغدادي للدكتور حسين علي محفوظ ص ١٧ — ٢٦ .

(٣) في الأدب الاسلامي ، فضولي البغدادي ص ٢٣٢ .

وفي زرب المسك الأذفر، وغدائر كالعنبر. إنها الشهود بالحق على كمال قدرة وعلم الحق. وهي حلقات وحلقات لسلسلة لهـا طراز الدنيا دورات ودورات». فهذا بعض صنيع الصوفية في العشق الإلهي؛ لأنهم يرون الجمال صورة من جمال الخالق، وفي حسن الجسد معانٍ كحسن الروح.

إن رقعة الحب الصوفي واسعة في أدب فضولي، فلنسمع اليه مايقول(١): «قد أنار العشق للعشاق منهاج الهوى، وسالك طريقه الحقيقية بالعشق اهتدى والعشق هو تلك النشوة الكاملة التي تستمد الخمر دوماً وقدها، وللناي تأثير الصدى. إن وادي الوحدة في الحقيقة مقام للعشق، وفي ذلك الوادي ليس بين أمير وفقير فرق. إن المطلع على خلوة سرّ الوحدة، لايفرق عاشقاً عن معشوق، ولا معشوقاً عن عاشق مدة، يامن تنحى على أهل العشق باللائمة كف الملامة عنهم، وقل أفي المقدور تغيير ما كتب الله لهم؟ لقد خطت براعة العشق حرف الوجود للعاشق، ويثبت في أثبات الله، نفي كل ماعداه، يا فضولي، لقد تذوقت من نشوة العشق مالا تدرك مداه، وكذلك كل عمل نستفتحه باسم الله».

لقد تشبه بالصوفية، وحذا حذوهم، وردّد مصطلحاتهم. ومثال ذلك كثرة ذكره للخال، فهو عند الصوفية إشارة إلى نقطة الوحدة، وهي مبدأ ومنتهى الكثرة، منه بدأ وإليه يرجع الأمر كله. قال في قصيدة عينية(٢):

جمالك خـلاق البدائع كلهـا   له موجد في كـل آن ومـبـدع
لدائرة الأرواح خالـك مـركز   لجمعية الألباب وجهـك مجمع

إن الحالة الاقتصادية السيئة في الطبقات الدنيا من المجتمع : والويلات التي رافقت حملات الغرباء، كانت دافعاً كبيراً لالتجاء الكثيرين إلى الله والملاذ به، والأنضواء تحت رحمته، وكذلك الحيف والظلم والأعتداء الذي أصاب فريقاً من الناس بسبب اضطراب الحياة السياسية والتقلبات

(١) نفسه ص ٢٣٢ .
(٢) نفسه ص ٢٣٤ .

الكثيرة التي تعاقبت على البلاد. والتطاحن الشديد بين العثمانيين والفرس على أرض العراق، وقد شاهد فضولي طرفاً منها.

أودع فضولي خفقات قلبه في شعره الصوفي، وجعل منه صورة لنفسه الحزينة ، ونراه يكثر فيه من الدعاء والتضرع مثل قوله (١):

باسمك اللهم يافتاح أبواب المنى
ياغني الذات ، يامن فيه برهان الغنى
يامفيض الجود، يافياض آثار الوجود
ياقديم الملك، يامن لم يغيره الفنا
ياعميم اللطف، ياواهب لذات السرور
ياطبيب القلب . ياحلال أشكال العنا
قد جنى قلبي من الدنيا ذنوباً ثم تاب
قد أتى مستغفراً فاغفر له ماقد جنى

وقال في دوبيت (٢) :

يامن بسط الأرض وأجرى الأفلاك
إدراك كماله كمال الإدراك
في الأرض وفي السماء لارب سواك
مانعبد ياواحداً الا اياك

ومن شعره في الحب الإلهي قوله (٣):

شربت رحيقاً من إناء محبة
ولا عدت أدري ماالإناء ومن أنا

(١) في الأدب الاسلامي ، فضولي البغدادي ص ٦١٣ .
(٢) نفسه ص ٤٢١ .
(٣) نفسه ص ٦١٦ .

هويت حبيباً قـد سما الغصن قامـة
ووجـهـاً يفوق البـدر في أفـق السمـا

وفي النثر العربي لن نجد لفضولي غير كتاب واحد بعنوان «مطلع الاعتقاد» وهو زاخر بأهم مظاهر الحياة الروحية والفكرية عند المسلمين بأسلوب أدبي جميل (١).

(١) طبعه حميد ارسلي في باكو عام ١٩٥٨ بعنوان «مطلع الاعتقاد والقصائد العربية لفضولي».

ابن معتوق الموسوي ١٠٢٥ – ١٠٨٧هـ

أنجبت مدينة البصرة منذ تأسيسها الكثيرين من العلماء والادباء أغنوا المكتبة العربية بتراث ضخم ، وكان شهاب الدين بن معتوق الموسوي من أدبائها المشهورين في القرن الحادي عشر للهجرة .

ولد في البصرة سنة ١٠٢٥ هـ من أسرة عربية كريمة النسب . وقد غبنته كتب التاريخ فلم تعطنا شيئاً عن سيرته ودراسته ورحلاته ، ولولا المقدمة التي دبجتها يراعة أبنه في مقدمة ديوانه لخفي علينا أمره وضاع جهده في مجال الادب .

سلك أبن معتوق مسلك الشعراء المداحين ،فاتصل بأمراء الحويزة ونال عطاياهم ولاسيما الامير علي خان بن كمال الدين خلف الموسوي ، فكان خير عون له ولاسرته من بعده ، وهو الذي قرب ولده معتوقاً واشار عليه بجمع شعر والده وضمه في ديوان ليبقى خالداً مع دواوين شعراء العرب المشهورين .

أصيب في أخريات أيامه بمرض الفالج وتوفي سنة ١٠٨٧هـ وله من العمر أثنتان وستون سنة .

شعره :

جاء ديوان أبن معتوق موزعاً على ثلاثة فصول ، الاول في المدائح . والثاني في المراثي والثالث في أشياء متفرقة ، وقد استغرقت المدائح الجزء الكبير من الديوان ، تناول الشاعر في قسم منه مدح الرسول صلى الله عليه عليه وسلم وآل بيته الطاهرين ، ومن أبرز مايميز هذا الشعر طول النفس والمقدمات الطويلة ، منه قصيدة تجاوزت مئة بيت عارض بها قصيدة البوصيري المشهورة بالبردة ، جاء فيها قوله (١) :

(١) الديوان ص ١٠ .

يا جيرةَ البانِ لا بنتمْ ولا برحت … تبكي عليكمْ سروراً أعين الديم
ولا انجلى عنكم ليل الشباب ولا … أفلتم يابدورَ الحيّ من إضم
ماأحرمَ النومَ أجفاني وحرمه … الا تغيبكم ياحاضري الحرمِ
غبتمْ فغيبتم صبحي فلست أرى … الا بقايا الميتْ فيه لممسي
صبراً على كلَّ مُرٍ في محبتكمْ … ياأملحَ الناس ماأحلى بكم المسي
رفقاً بصبٍ غدت فيكم شمائله … مشمولةً منذ أخذ العهدِ بالقدمِ
حليفِ وجدٍ إذا هاجتْ بلابلُه … ناجي الحمامَ فداوى الغم بالنغمِ
يشكو الظما فاذا مامرَّ ذكركم … أنساه ذكرَ ورودِ البانِ والعلم

لقد كانت زيارة ابن معتوق إلى مكة والمدينة دافعاً إلى نظم هذا الشعر متوخياً منه الفوز عند الله بالرضا كما صرّح بذلك في قصيدة أخرى (١):

أمّلت فيكَ وزرت قبركَ مادحاً … لأفوزَ عندَ اللهِ في رضوانهِ
عبدٌ أتاكَ يقوده حسن الرجا … حاشا نداكَ يعود في حرمانهِ
فأقبلْ إنابتَه إليكَ فانه … بكَ يستقبل اللهَ في عصيانهِ
فاشفعْ له ولآلهِ يومَ الجزا … ولوالديه وصالحي إخوانهِ
صلّى الإله عليكَ يامولى الورى … ماحنَّ مغتربٌ إلى أوطانهِ

وكان يُهذّب قصائده وينقحها إلى أن تصبح محكمة البناء قوية السبك، ثم يقدمها بين أيدي الممدوحين في مناسبات معينه من أيام السنة ، وغالباً ما يصرّح بمطلبه في نهايات هذه القصائد وهو المال ومؤونة العيش ، من ذلك قوله في خاتمة قصيدة طويلة يمدح بها الأمير علي خان ويهنئه بعيد الفطر سنة ١٠٧٨هـ (٢) :

لازلتَ خير أبٍ لأبناءِ الرَّجا … وطريقَ رزقٍ بابُه لا يُرتج

(١) الديوان ص ١٠ .
(٢) الديوان ص ١٢١ .

فانعمْ بأجرِ الصوم وابـق بنعمةٍ ... تُغلي صدورَ الحاسدينَ وتوهـــج
وابهَجْ بعيد أنتَ أسنى غـرَّةً ... منه وأبهى في القلـوب وأبـهج
وارفلْ مدى الأيام في حُللِ الثنا ... فنـدَاكَ يُسديهـا وفكري ينســج

ولابن معتوق قصائد تمتليء بالمشاعر الصادقة في رثاء الامام الحسين عليه السلام وعدد من أمراء الحويزة الذين مدُّوا اليه يد العون والمساعدة وحموه من الفاقة والعوز ، نذكر هنا الأبيات الآتية من قصيدة في رثاء السيد حسين بن السيد علي سنة ١٠٨٠ هـ (١):

عزيزٌ ثوى تحت التراب بحفرةٍ ... فياليتها محفورةٌ في الترائبِ
سقى الله مثواه بعفوٍ ورحـمـةٍ ... وأولاه ستراً يوم كشف المعايب
سنبكيه ماعشنـا وإن قـلَّ دمعنا ... أزدناه منا بالقلوب الـذوائـبِ
فلا سلمتْ نفسٌ من الوجد لم تذب ... عليه ولا قلـبٌ غدا غير واجـبِ

وله أيضاً شعر وجداني لطيف : استدعت مواقف محزنة أو مفرحة إلى نظمه ، منه الأبيات الجميلة الآتية في عتاب أحد أولاده وكان قد خاصمه وأراد السفر (٢) :

جعلتكَ بالسويدا من فـؤادي ... ومن حدقـي فديتُـكَ بالسـوادِ
هويتكَ واصطفيتـكَ دون رهطي ... وأولادي فكنتَ مـن الأدعاي
جهلتَ أبوَّتي وجحدتَ حقي ... وقابلـتَ المـودَّةَ بـالعـنـادِ
أتنسـى حسنَ تربيتي ولطفي ... وما سبقتْ اليكَ من الأيـادي
رجوتكَ كالعصا لأوان شيبي ... ومعتمـدي اذا مـالـت عمـادي
وان كسرتْ يد الحدثانِ عظمي ... تُرى منه بمنزلـةِ الضمـادِ
ولسـت أخال فيكَ يخيب ظني ... ويُخطي سهم حدْسي واجتهـادي

---

(١) الديوان ص ٢٢٠ .
(٢) الديوان ص ٢٢٤ .

عساكَ علي تعطف يا حبيبي   وتهجر ماتروم من البعادِ

واشتهر بنظم « المواليا » — وهو من الفنون الشعبية المستحدثة — سخره للمديح وطلب الحاجة من الممدوحين ، من ذلك قوله مخاطباً السيد علي خان ابن السيد منصور خان (١) :

حتامَ فيكم أعاني الشوق وأقاسي   وأذوب رقة وكل منكم قاسي
أمابكم من طبيب لعلة الياسِ   بمرهم اللطف مجروح الحشا ياسي

والى جانب المواليا نظم « البند » واستخدمه وسيلة للمديح ، وهو دون شعره في جمال الصياغة وحسن التعبير (٢) .

---

(١) الديوان ص ٢٣٣ .

(٢) ينظر الديوان ص ٢٢٧ – ٢٣٠ .

الْبَابُ الثَّانِي

النَّثر

الفصل الأول

النثر وأنواعه

حينما سقطت الدولة العباسية، وجاءت دول أعجمية. تأثر النثر العربي — وهو شديد الصلة بالحياة السياسية والاجتماعية — بالظروف المستجدة ، وأصابه شيء من الضعف والفتور.

. والمتتبع للنثر في العصور المتأخرة يجده يسير في مسارين ، الأول — وهو الكثير — يسلك طريق الصنعة والتكلف ، وكتابه يقتدون بالطريقة الفاضلية التي جرت على غرار طريقة ابن العميد وأربت عليها في الاغراق في الجناس والطباق والتورية ومراعاة النظير ، والولوع بالسجع وغريب اللغة، والتضمين والاقتباس ، والاكثار من الاستعارات والكنايات، والاطناب في الشرح والتوضيح. والثاني — وهو القليل — يسلك طريق الطبع والسليقة والبساطة ، وكتابه يتوخون وضوح العبارة والبعد عن الالتواء في الأسلوب ، والمواءمة بين الفكرة والصورة اللفظية.

إن كمية النثر في هذا العصر كبيرة، فما هو ديني نجده في كتب الفقه والحديث والتفسير وعلم الكلام ، وما هو لغوي نراه في مصنفات النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي وغيرها مما يمت بصلة الى اللغة من قريب أو بعيد، ومنها ماهو نقلي ككتب التراجم والطبقات والتاريخ بوجه عام ، ومنها ماهو عقلي كالذي نجده في كتب المنطق والمقولات وغير ذلك من الأبحاث الفلسفية ، ومنها ماهو اداري أو سياسي كتلك الرسائل الديوانية التي كانت تصدر عن الخلفاء إلى السلاطين أو عن السلاطين الى النواب والعمال والقضاة والوزراء وأرباب الدولة من أهل السيف والقلم ومنها ماهو أجتماعي

كتلك الرسائل الاخوانية التي كانت تقال إما في الشكر أو في المباسطة والمداعبة وغير ذلك مما كان يكتب فيه الأخوان بعضهم إلى بعض من وصف حادثة، أو ذكر نازلة، أو مما يدخل في باب المشاهدة والتجربة (١) .

وقد أُلفت كتب كثيرة في فن النثر وأنواعه، ومن أشهر الكتاب في صدر هذه الحقبة والنابهين من بعدهم : القاضي محيي الدين بن عبد القاهر (ت ٦٩٢) وهو رأس المترسلين في دولة المماليك البحرية، وشهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي (ت ٧١٩) مؤلف كتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» وأبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٨٤٧) مؤلف «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» و« التعريف بالمصطلح الشريف» وصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي (ت ٧٦٤) صاحب المصنفات المشهورة وشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١) مؤلف «صبح الأعشى في صناعة الانشا»، وتقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥) مؤلف «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار»، وابن خلدون المؤرخ المشهور (ت ٨٠٨)، وشهاب الدين الخفاجي المصري (ت ١٠٦٩) مؤلف «ريحانة الألباء» ، وأبو الخير عبد الرحمن السويدي البغدادي (ت ١٢٠٠) مؤلف «حديقة الزوراء» .

الخطابة :

بعد أن تمزقت الدولة العباسية ، وتناثرت أشلاؤها ، وتناوبت فئات مختلفة على حكمها ، وفشت العجمة : هبطت مكانة الخطابة ، وتقوضت أركانها ومقوماتها ، وقل عدد الخطباء ، وكان بعضهم يستظهر خطب السابقين ويرددها على المسامع ، خاصة خطب عبد الرحيم بن محمد بن أسماعيل بن نباتة (ت ٣٩٤) .

وهذا لايعني أن الساحة خلت من الخطباء الجيدين الذين يمتلكون القدرة على الاقناع والتأثير في النفوس بلغة رصينة بعيدة عن الخطأ واللحن . ولكن

(١) ينظر كتاب الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٢٨٩ .

هؤلاء الخطباء كانوا قلة قليلة لم تستطع أن تغطي الرقعة الاسلامية وتسمع صوتها الى الناس جميعاً .

كانت الخطب تلقى في مناسبات كثيرة، منها الاستنفار لصد غارة، أو ردّ أعتداء ، أو نجدة أخوان واصدقاء، ومنها ما كانت تلقى على المنابر ايام الجمع والاعياد والمناسبات الدينية الاخرى ، وهي «تعتمد على اثارة العاطفة لتحبب اليها الخير ، وتنفرها من الشر ، وتوجهها الى تقوى الله وحبه وخشيته وقلوب السامعين متفتحة للتأثر بالخطب الدينية ، لانها تصلهم بالخالق سبحانه وتعالى ، وتعلو بهم عن الارض الى السماء ، وتبصرهم بما ينفعهم في الدنيا والاخرة ، فالخطيب يتكلم من قبل الله ، والموضوع ديني روحي وثمرة الخطبة سعادة الفرد والمجتمع، وتمجيد الله وطاعته وابتغاء الخير»(١).

وكانت الخطبة تلقى على ضربين : الاول كونها تلقى مشافهة بعد أن يقف الخطيب على منبر أو منصة أو فوق مرتفع من الارض ، مصحوباً كلامه بالحركات والسكنات والاشارات والايماءات التي جرى على اصطناعها بقصد التأثير على مشاعر الجماهير ، أما الثاني فهو أن تكتب الخطبة كتابة ، وذلك كالخطب التي دأب رجال الدين على ذكرها بين يدي المؤلفات والمصنفات الاصولية والفقهية والتفسيرية وغير ذلك مما كانوا يصنعونه في مختلف العلوم الشرعية وكالتي كانت تكتب في شأن زواج أمير أو أبن سلطان من أحدى بنات الخلفاء أو الامراء أو السلاطين(٢) كخطبة الصّداق التي كتبها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر للملك السعيد بركة بن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري على بنت الامير سيف الدين قلاوون الصالحي الالفي الذي أضحى من بعد سلطاناً ، واليك طرفاً منها (٣) : «وبعد ، فلو كان اتصال كل شي بحسب المتصل به في

(١) فن الخطابة للدكتور أحمد محمد الحوفي ص ١٠٥ .
(٢) ينظر كتاب (الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري) ص ٢٩١ .
(٣) صبح الاعشى ١٤ : ٣٠٠ .

تفضيله ، لما استصلح البدر شيئاً من المنازل لنزوله ، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله ، ولا الذكر الحكيم لساناً من الالسنة لترتيله ، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله ، لكن ليتشرف بيتٌ يحلُّ به القمر ونبتٌ يزوره المطر ، ولسانٌ يتعوذ بالايات والسور .

ونثــارٌ يتجمّــل باللالىء والدرر ، ولذلك تجملتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم - أصهاره واصحابه، وتشرّفتْ أنسابهم بأنسابه وتزوج - صلى الله عليه وسلم - منهم ، وتمّتْ لهم مزيّة الفخار حتى رضوا عن الله ورضي عنهم» .

ان الطابع العام للخطب أنذاك كانت متشابهة تقريباً في التزام السجع ، واستخدام فنون البديع كالجناس والطباق والمقابلة والترصيع والتضمين والاقتباس . كما امتازت باختيار الالفاظ والعبارات ، والوحدة الوثيقة التي تربط أجزاءها ومعانيها في موضوع واحد، واليك أنموذجاً لاحدهم وهو خطبة النيل لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) :

«الحمد لله العظيم القادر الحسيب الجليل ، الذي أسبغ على عبادهِ فضله وكرمه الجزيل الحكيم ومن حكمته أجراؤها النيل ، أنزله من الجنة بقدرته، وارسله لنفع العباد كما أراد فليس له شبيهٌ ولا مثيلٌ ، أحمده حمداً يبري السّقامَ ويشفي العليل . واشهد أن لا اله الاّ الله الملك الحقُّ الوكيل ، واشهد أنّ محمداً عبده ورسوله الممدوح في التوراة والانجيلِ والتنزيل، وصلى الله عليه وعلى اله واصحابه ما استبان السبيل ، واتضحَ الدليل .

أيها الناس ، إنّ للهِ عليكم نعماً لاتعرفونَ لها قدراً ، ولا تطيقونَ لمكافأتها حمداً ولا شكراً ،أسبغَ نعمَتَه الظاهرةَ والباطنة عليكم تترى ، واطلَعَ على أعمالكم فأسبلَ حلمَه عذراً، وصفحاً وستراً ، فلو احتبس هذا النيل عن وفائهِ ولو شيئاً نزراً ، لما استطعتم عنه صبراً ،فتأملوا كيف ملأ الاودية مداً وجزراً ، وعمَّ البلادَ بطناً وظهراً. فسبحانَ مَنْ أنزله من بحر عظمته الى سداء مملكته ، بكيلٍ مكيولٍ ، ووزنٍ موزونٍ ،ويعلم

عدَّة قطراته، وعلى كلِّ قطرة ملائكةٌ يسبحونَ الليلَ والنهارَ لايفترون. ينزِّلُه من جبالٍ شواهقَ مرتفعةٍ ؛ فتقذفه الى أرضٍ منخفضةٍ وأوديةٍ منقطعةٍ ، لا سائقَ من الادميين يسوقة ، ولا حارسَ له في الليلِ والنهارِ يقلقُه أو يعوقُه ، الى أن يـأتي أرض مصرَ ينفع مَنْ فيهـا ؛ فنرى خرير تياره ينادي في نواحيها، «أفرأيتم المـــــاء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المز ن أم نحن المنزلون؟» (١)

الكتابة الديوانية :

بلغت الكتابة الديوانية في هذا العصر منزلة رفيعة ، وارتفعت مكانة الكتاب لدى السلاطين والملوك والأُمراء إلى مـرتبة عالية لاتقلَ شأناً عن مرتبة القضاة وأرباب السيوف .

وموضوعات الكتابة الديوانية كثيرة، منها العهود والتقاليد والمراسيم والمنشورات ،وكذلك كتب الوعيد والانذار بالحروب. إلى جانب رسائل الصداقة والسلام وتبادل الود والتحيات والهدايا والتهاني.

إن هذه الأنواع من الكتابة تتطلب ثقافة واسعة ومعرفة جيدة بدقائق اللغة وفنون البلاغة والبديع، واجادة الخط وقواعد الإملاء، وقد أُلفت كتب خاصة لهذه الصنعة لتوضع بين أيدي الكتّاب يرجعون اليها عند الحاجة. وأغلب الكتب الديوانية تجنح الى التأنق والتصنع ، واستخدام السجع بكثرة ، وكذلك سائر الفنون البديعية والمحسنات اللفظية ، والاستعانة بمصطلحات العلوم المختلفة كالفقه والتفسير واللغة والنحو..

وعني سلاطين مصر والشام بالكتابة الديوانية ، واستخدموا الى جانب صاحب ديوان الأنشاء منصب «كاتب السر» ، أو رئيس الديوان السلطاني ولكي نقف على أسلوب كتابهم نأخذ جزءاً من رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ) التي كتبها على لسان السلطان قلاوون إلى السلطان أحمد

---

(١) سورة الواقعة ، الآية ٦٨ .

غازان سلطان التتر، رداً على رسالة منه في طلب الهدنة والسلام، بعد اعتناقه الأسلام (١):

بسم الله الرحمن الرحيم.

بقوة الله تعالى، باقبال دولة السلطان الملك المنصور قلاوون إلى السلطان أحمد.

أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا للحقّ منهاجاً، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً. والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، الذي فضله الله على كلِّ نبي، نَجّى به أُمته، وعلى كل نبي ناجَى، صلاة تنير مادجا، وتنير مَنْ داجَى.

فقد وصل الكتاب الكريم، المتلقي بالتكريم، المشتمل على النبأ العظيم. من دخوله في الدين وخروجه عمن خلّف من العشيرة والأقربين.

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر للسُعلم المُعلم، والحديث الذي صحّ عند أهل الإسلام إسلامه، وأصحُّ الحديثِ ماروي عن مسلم، وتوجّهت الوجوه الى الله سبحانه فيأن يثبّته علىذلك بالقول الثابت، وان يُنبتَ حبَّ حُبٌ هذا الدين في قلبه، كما أنبت أحسن النبتِ من أخشنِ المنابت.

وحصلَ التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث اخلاصه النيّة في أول العمر وعنفوان الصبا إلى الاقرار بالوحدانية، ودخوله في الملّة المحمدية، بالقول والعمل والنيّة، فالحمد لله على أن شرح صدره للاسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، كحمدنا لله على أن جعلّنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال و المقام، وثبّت أقدامنا في كل موقف اجتهاد، وجهاد تتزلزل دونــه الأقدام.

لقد كانت الرسائل الديوانية ذات أهمية تاريخية، فهي تسجل لنا

---

(١) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون ص ١٠ .

بدقة ووضوح الحالة النفسية والسياسية والاجتماعية والحربية والاخلاقية التي كان الناس آنذاك يتقلبون فيها ويعيشون في اكنافها ، يقول الدكتور شوقي ضيف (١) : «ويظن كثيرون أن النثر جمد في هذا العصر جموداً شديداً لما ساد في بعض جوانبه من تكلف في تحرير معانيه ، ومن سجع مثقل بأصداف البديع ، وخاصة في الرسائل الاخوانية ، كل ذلك لم يحل بين كتاب الدواوين وبين التعبير عن واقع الحياة السياسية تعبيراً كانوا فيه ألسنة ناطقة عن أهل مصر والشام ، وعن أهوائهم السياسية ومطامحهم الحربية » . .

الرسائل الإخوانية :

يُصوِّر هذا اللون من النثر العلاقات الاجتماعية بين الكتاب وأسيادهم أو بينهم وبين أصدقائهم وأحبابهم ، والقاريء يرى فيه التهنئة والتعزية ، والشكر وطلب الزيارة ، وماشابه ذلك من المعاني الاجتماعية التي تربط الناس بعضهم ، وتمتزج أحياناً بالعتاب والاعتذار ، اذ أن الكاتب يحاول أن يظهر شعوره ، ويعرب عما في قلبه من حب ومودة ، يزيل ماعلق في نفس صديقه من ريب ، وماحدث من جفاء وقطيعة .

وشاعت في هذا العصر المناظرات الأدبية الجميلة بين الزهور والحيوان والطير وافتتن الأدباء بها أيما افتتان حتى صارت شارة بارزة لأدب هذه الحقبة ، وقد اتخذت وسيلة للترفيه عن النفس والهروب من الالام ونسيان المشكلات التي تحيط بالناس وتحدق بهم .

ومما يميز اسلوب الرسائل الاخوانية البساطة واستخدام عبارات المجاملة ونعوت التعظيم والتبجيل ، ويراعى فيها التناسب بين الموضوع والالفاظ ومثال على ذلك رسالة ابن الوردي في رثاء العالم الفقيه الإمام هبة الله بن عبد

(١) تنظر مقالة الدكتور شوقي ضيف (عصر احياء التراث العربي وتجديده) ، المجلة العدد ١٢٢ ، شباط ١٩٦٧ .

الرحيم البارزي الشافعي (ت ٧٣٨ هـ) وقد كتب بها الى ابنه القاضي نجم الدين عبد الرحيم (١) :

«ويُنهي أنه بلغ المملوك وفاة الحبر الراسخ ، بل انهداد الطور الشامخ ، وزوال الجبل الباذخ ، الذي بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروه بالندب ، وذلك فرض ، فشرقت أجفان المملوك بالدموع ، واحترق قلبه بين الضلوع ، وساواه في الحزن الصادر والوارد ، واجتمعت القلوب لما تم لمأتم واحد، فالعلوم تبكيه، والمحاسن تعزي فيه،والحكم ينعاه والبر يتفدّاه والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده»

ونقف مع ابن الوردي وقفة أُخرى في رسالة يصف فيها الديك سمّاها «منطق الطير» يقول فيها (٢) :

«فصاح الديك : ها أنا أناديك ، أنا قد أذنت ، فاقم الصلاة أنت . هذا أوان صف الأقدام ، ووضع الجباه . ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ؟ كم أوقظك . وبانقضاء الأوقات أعظك ، فأشفق عليك بصياحي ، وأرفرف عليك بجناحي . أقسم لك الوظائف بلا حساب ، واعرف المواقيت بغير الاصطرلاب ، أنها كم عن معصية الله بخروج الوقت ، فلا تعصوه ، والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه ، فمن ادعى حسن الصحبة ، فليؤثر كإيثاري ، ولايختص من رفاقه بحبه ، كم منحت أهل الدار إخائي ،ووليتهم ولائي ، وهم يذبحون أبنائي ، ويستحيون نسائي » .

لقد قصد ابن الوردي في هذه الرسالة ارشاد الناس ووعظهم ، ومثلها كثير في أدب العصور المتأخرة .

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢ : ٤٥٥ ، وينظر ديوان ابن الوردي ص ١٦٣ .

(٢) ديوان ابن الوردي ص ١٥٨ .

فنون اخرى :

وشاعت في العصور المتأخرة فنون نثرية أُخرى ، الى جانب الخطابة والكتابة الديوانية والرسائل الاخوانية ، مثل المقامات التي تغيّرت طريقة كتابتها عما وضعه السابقون ولاسيما بديع الزمان الهمداني وقاسم بن علي الحريري ، اذ تخلّصت من الرواية ، واكتفت بالحكاية . وقد عبّر الكتاب بهذا الفن عن أفراحهم وأحزانهم ، وجدهم وهزلهم . واستخدمه بعضهم في الأغراض التي يستخدم فيها الشعر مثل المديح والهجاء والرثاء والوصف . ولمعت اسماء كثيرة في كتابة المقامات ، منهم : ظهير الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني (ت ٦٩٧ هـ) ، وأبو الندا معد بن نصرالله المعروف بابن الصيقل الجزري البغدادي (ت ٧٠١هـ) ، وشمس الدين محمد بن الحسن الصائغ الدمشقي (ت ٧٢٢ هـ) ، وعمر بن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) وأبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد (ت ٧٥٠هـ) . وننقل هنا جزءاً من مقامة ابن الكازروني المعروفة بـ «مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية» التي جاءت وصفاً دقيقاً للوقائع الدامية والمجازر الرهيبة التي انتابت بغداد بعد مقتل الخليفة المستعصم بالله ودخول الجيوش التترية المتعطشة للدم . قال (١) :

«خطر ببالي في بعض الليالي ، أن ألبس سربالي البالي ، وأفارق أشبالي ، وأجعل الله اتكالي ، في قطع فيافي البيداء ، ورفض الدعة للحث الى الزوراء ، فرأيت في المنام قائلاً أسمع نداءه ولا أحقق مرآه ، ويملأ سمعي صوته وان كنت لا أراه ، يقول : ياعبدالله ، «فاذا عزمتَ فتوكّل على الله»(٢)

فنهض بي عزمي لاجابة الداعي ، وقعد أطفالي ينتحبون لوداعي ، وأنا أعدُّ للرحلة زادي ، وأملأ بالماء لبعد المسافة مزادي (٣) . فلما اقتعدت راحلتي وأنضيتها في قطع مسافتي ، وافيتها بلدةً خالية ، وأمةً جالية ،

(١) مقامة في قواعد بغداد ص ١٥ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

(٣) المزاد : قربة الماء .

ودمنةً حائلة ، ومحنةً جاثمة ، وقصوراً خاوية ، وعراصاً باكية . قد رحل عنها ساكنها ، وبان عنها قاطنها ، وتمزقوا في البلاد ، ونزلوا بكلّ واد وقصورها المشيدة مهدومة ، ونعماؤها مسلوبة معدومة ، موحشة لفقد قطانها ، باكية بلسان الحال على سكانها . عظام العظام بالية ، تسفي عليها الرياح السافية . «فهل ترى لهم من باقية (١) » . فوقفت أبكيها ، وأندب ربوعها ومن كان فيها :

وأندب أطلالَها تارةً   وأبكي على فرقةِ الظاعنينا
فلو ذهبتْ مقلةٌ بالبكاء   لفرطِ الغرامِ لكنّا عمينا

وهناك شخص قد بصر بحالي ، وهو يذري دمعه لسماع ارتحالي ، فقلت له : ماجلاؤك فقد أعجبني حالك . فقال : إليكَ عني ، واذهبْ لسبيلك ودعني . فإني أتمتع بالبكاء ، وأسحُ الدمعَ على هذه الأصداء وأقيم مأتم العزاء . فلو رأيتَ من هذه البلدة ماراأيت ، لأذرفت معي الدمع ولأسمع بناؤك الجمع . فقلت له : حدثني كأني أشاهد . وصف لي ماكان بها من المشاهد . فقال : يتصدع قلبكَ ، ويطير لسماع ذلك لبكَ . واذا شئت فاتبعني ، وحدث عن نفسك ولا تروعني . فاسرعت خلفه أقص أثره ، حتى وقف بي على عبرة ما اعتبره ، فرأيت حرم الخليفة مهاناً ، بعد أن كان كعبة وأماناً . فطاف بي ببعض القصور ، واعتذر عن الباقي لقصوره ...»

هذه المقامة كما لاحظنا – وان كانت مليئة بألوان الزخارف اللفظية والمعنوية – تتسم بوضوح القصد وصدقه ، وقوة التعبير وتأثيره ، وهذا مانراه أيضاً في مقامة الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرسعني التي ذكر فيها هجوم التتر على مدن الشام ، ولاسيما حلب التي كثر فيها القتل والسلب والنهب والتخريب (٢) .

---

(١) سورة الحاقة ، الآية ٧ .

(٢) تتمة المختصر في أخبار البشر ٢ : ٣٠٨ .

وراجت في العصور المتأخرة المفاخرات أو المناظرات مثل المفاخرة بين السيف والرمح للسعدي (ت ٧١٧هـ) والمفاخرة بين السيف والقلم لابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) والمفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة المصري (ت ٧٦٨هـ) والمفاخرة بين دمشق والقاهرة للبسطامي (ت ٨٤٣هـ) . واليك طرفاً من مناظرة السيف والقلم لابن الوردي (١) :

«قال القلم : صَه ، فصاحب السيفِ بلا سعادةٍ كالأعزل .

قال السيف : مه ، فقلم البليغِ بغيرِ حظٍّ مغزل .

قال القلم : أنا أزكى وأطهر .

قال السيف : أنا أبهى وأبهر .

فتلا ذو القلم لقلمه : إنا أعطيناكَ الكوثر .

فتلا صاحب السيف لسيفه : فصلِّ لربكَ وانحر .

فتلا ذو القلم لقلمه : إن شانئك هو الأبتر . قال : أما وكتابي المسطور، وبيتي المعمور ، والتوراة والأنجيل . والقرآن ذي التبجيل . إن لم تكف عني غربكَ ، وتبعد عني قربكَ ، لأكتبنكَ من الصم البكم ، ولأسطرنَّ عليكَ بعلمي سجلاً بهذا الحكم» .

وشاعت أيضاً في العصور المتأخرة الأقاصيص المسلية ، وسير الفرسان والشجعان مثل سيرة عنترة بن شداد ، وسيف بن ذي يزن ، وقصة الظاهر بيبرس . وظهر لون من الأدب عرف بـ «طيف الخيال» فيه ملح ونوادر وأشعار ، وهو قريب من المسرحية ، ومن أشهر من كتب فيه بهاءالدين علي ابن عيسى الإربلي (ت ٦٩٢هـ) وشمس‌الدين محمد بن دانيال الموصلي (ت ٧١٠هـ) .

أما النثر الذي كتب به الأدب والنحو واللغة والتاريخ والسير والرحلات والجغرافية والعلوم العقلية فكثير ، وقد وصلت إلينا مؤلفات ومجاميع ضخمة في هذه العلوم نشر بعضها وينتظر بعضها الآخر الخروج من ظلمات الخزائن.

(١) ديوان ابن الوردي ص ١٥٨ .

الفصل الثاني

الكتّابُ

ابن نباته المصري ٦٨٦ – ٧٦٨

عرف باسم «ابن نُباتة» شاعران كبيران ، أولهما ابن نُباتة السعدي ، عبدالعزيز بن عمر (١) أحد شعراء سيف الدولة الحمداني المتوفى سنة ٤٠٥هـ وثانيهما ابن نُباتة المصري ، محمد بن شمس‌الدين محمد بن شرف‌الدين محمد الملقب بجمال‌الدين الذي نحن بصدد التعريف به (٢) .

ولد ابن نُباتة المصري في القاهرة سنة ٦٨٦هـ في أسرة عريقة مشهورة بالعلم والأدب ، يتصل نسبها بعبدالرحيم بن محمد بن اسماعيل (ت ٣٧٤هـ) صاحب الخطب المشهورة . وقد فخر في شعره بالانتساب إليها بقوله (٣) :

ورثت اللفظ عن سلفي وأكرمْ ... بآل نُباتة الغُرّ السَّراةِ

فلا عجبٌ للفظي حين يحلو ... فهذا القَطْر من ذاك النباتِ

تفرغ منذ الصغر لدراسة العلوم والآداب ، واستكمل ثقافته في وقت مبكر ، وأخذ من كبار العلماء والأدباء في عصره ، ذكرهم في إجازته

---

(١) طبع ديوانه في دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٧ .

(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ١ : ٣١١ ، البداية والنهاية ١٤ : ٣٢٢ ، تاريخ ابن اياس ١ : ٢٢١ ، طبقات الشافعية للسبكي ٦ : ٣١ ، النجوم الزاهرة ١١ : ٥٠ ، خزانة الأدب للحموي ص ٢٨٩ ، ثمرات الأوراق ٤٨ – ٤٩ ، حسن المحاضرة ١ : ٢٤٥ ، شذرات الذهب ٦ : ٢١٢ ، البدر الطالع ٢ : ٢٥٢ ، تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٢٢ ، ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق للدكتور عمر موسى باشا . الأدب في العصر المملوكي للدكتور محمد زغلول سلام ٢ : ٢٢١ . مقدمة ديوانه المطبوع سنة ١٣٢٣هـ .

(٣) الديوان ص ٨٠ .

للصفدي (١) . وبعد أن ذاعت شهرته سافر إلى الشام سنة ٧١٧هـ واستقر في كنف العالم الأديب أبي الفداء علي بن اسماعيل الأيوبي ملك حماة ، وألف باسمه أغلب كتبه ، ونظم فيه شعراً كثيراً ، وكانت مدة إقامته في حماة من أجمل الأيام وأحلاها ، ردّد في شعره شكره لهذا الملك العطوف مثل قوله (٢) :

فلأشكرنّ جميلَ ما أوليتني شكرَ الرياض الزهر للماء الغَدَقْ
بمدائح أهلّتني لنظامها فغدتْ محرَّرة وعنقي مُسْتَرَقْ

أصبح صفياً للملك المؤيد وخليلاً ، وتفتحت أكمام شاعريته في ظله ، وأخرج ألطف أشعاره وأعذبها في حماة ، وأقرّ بذلك في قوله (٣) :

لولاك ما أمست قريـ ـحتي الكليلةُ شاعره
أنتَ الذي روّتْ غما ئمه رُباي العاطره
فلقد وجدتُ ديارَ ملـ ـكِكَ بالسعادة عامره
قهرتْ حماةُ ليَ العدا فحماةُ عندي القاهره

ولم يكن ابن نُباتة الشاعر الوحيد في حمى هذا الملك ، بل هناك آخرون أمثال صفي‌الدين الحلي ، وشهاب‌الدين محمود الحلبي ، وأمير الزجل ابن مُقاتل .

انقضت حياة ابن نُباتة الهانئة بوفاة الملك المؤيد سنة ٧٣٢هـ ، ولم يستطع الملك الجديد الأفضل محمد بن الملك المؤيد حفظ ملك بني أيوب في حماة ، وسقطت دولته سنة ٧٤٣هـ . وراح ابن نُباتة يسعى في الأرض ليجد مكاناً أميناً لحياته ، وأخيراً استقر في دمشق وصحب الوزير أمين الدين عبدالله ، ولم تمض فترة من الزمن حتى قرره هذا الوزير «ناظر القمامة» بالقدس أيام

(١) الوافي بالوفيات ١:٣١٧ ، خزانة الأدب للحموي ص ٢٩١ ، الدرر الكامنة ٤:٢٢٠ .
(٢) الديوان ص ٣٣٨ .
(٣) الديوان ص ١٨٧ .

زيارة النصارى ، فكان يتوجه إليها ويباشر عمله ويعود إلى دمشق . وبعد مدة اعتزل هذا العمل وباشر عملاً آخر وهو كتابة التوقيع في ديوان الانشاء، ومن يقرأ توقيعاته يدرك مدى تمكنه من الأساليب الديوانية آنذاك ؛ ولاسيما أنه عرف بطريقته الرمزية في كتابة النثر التي هي في الحقيقة تطور جديد للنثر الفني العربي نحو التصنع والتصنيع (١) .

بعد نصف قرن من الزمن في أرض الشام عاوده الحنين إلى مصر مسقط رأسه وملعب صباه ، وأخيراً ارتحل إليها باعانة السلطان الناصر حسن ، ووصلها في ربيع الأول سنة ٧٦١هـ ولم يكن بمقدوره مزاولة العمل لكبر سنه ونحول جسمه ، واشفق عليه السلطان وأمر له راتباً متطوعاً وأصبح شاعره المفضل ، وطلب منه أن ينسخ له ديوان شعره ، وألف له ديوان خطب جُمْعية منبرية بعدد أسابيع السنة .

وفي أُخريات أيامه أصابه الهزال والمرض ، وأخذ ينظم شعراً حزيناً مثل قوله وهو يذكر أولاده الذين دفنهم في حياته وعددهم ستة عشر ولداً، ويذكر أباه ، ويترحم عليه (٢) :

تأخرتُ عنكم يا بنيَّ ، ويا أبـي وما أنا إلاّ البعض ماض جميعهُ
وعودٌ نباتيَّ متى يرتجى بقـا؟ وقد مات منـه أصلُهُ وفروعـه

ذبل عود ابن نُباتة ، وانطفأت شمعته في القاهرة يوم الثلاثاء ، السابع من شهر صفر سنة ٧٦٨ هـ بمنزله بزقاق القناديل .

آثاره :

ترك ابن نباتة مجموعة كبيرة من الآثار طبع قسم منها وبقي القسم الآخر مخطوطاً ، نذكر هنا أهمها :

١ ــ ديوان شعره ، وهو مطبوع من غير تحقيق .

---

(١) ينظر ابن نباتة المصري امير شعراء المشرق ص ٢٠٩ .

(٢) الديوان ص ٣٢٠ .

٢ ـ القطر النباتي ، وهو مقاطيع مختارة من شعره ، مخطوط في دار الكتب الوطنية في باريس ضمن مجموع رقم ٢٢٣٤ .

٣ ـ منتخب الهدية في المدائح المؤيدية ، وهو قصائد في مدح الملك المؤيد اسماعيل طبع في بيروت سنة ١٣٠٤ هـ .

٤ ـ نظم السلوك في مصايد الملوك ، وهي أرجوزة في وصف رحلة صيد، عدد ابياتها ١٦٧ بيتاً نشرها الدكتور أسعد طلس في مجلة المجمع العلمي العراقي ج ٢ ص ٣٠٢ ـ ٣١٠ .

٥ ـ سوق الرقيق ، قصائد في الغزل والنسيب ، منه نسخة في المكتبة الوطنية في باريس ضمن مجموع رقم ٣٣٦٢ .

٦ ـ مختار ديوان ابن الرومي ، منه نسخة في مكتبة أيا صوفيا ، وله مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢٢ .

٧ ـ مختار ديوان ابن قلاقس ، طبع سنة ١٣٢٣ هـ .

٨ ـ مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ، طبع في دمشق سنة ١٩٧٢ .

٩ ـ سجع المطوق ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٧٦٦ أدب .

١٠ ـ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، له عدة طبعات .

١١ ـ الفاضل من إنشاء الفاضل، له نسخ خطية كثيرة في يال هافن في أمريكا ، والمتحف البريطاني ، والمكتبة الأزهرية ...

١٢ ـ شعائر البيت التقوى ، نسبة الى تقي الدين عمر الأيوبي جد الأسرة التي حكمت حماة ، طبع في بيروت سنة ١٣٠٢ هـ .

١٣ ـ المفاخرة بين السيف والقلم ، طبعت في بيروت ١٣٠٢ هـ ، وفي خزانة الأدب للحموي ١٠٤ ـ ١٠٩ .

١٤ ـ سلوك دول الملوك ، منه نسخة خطية في أكاديمية فينا .

١٥ ـ حظيرة الأنس الى حضرة القدس ، وصف فيها رحلة الى بيت المقدس ، وردت في «ثمرات الأوراق» لابن حجة الحموي .

١٦ ـ تعليق الديوان ، جمع فيه ماأنشأه في أثناء عمله في الديوان ، منه نسخة في مكتبة برلين .

١٦ ـ ديوان خطب جمعية ، له طبعات كثيرة .

١٨ ـ خبز الشعير ، جمع فيه كل ماسرق منه تلميذه الصفدي أو عارضه به . أوردها ابن حجة في خزانته ١٣ ، ١٤ .

وثمة كتب أخرى وصلت الينا أسماؤها يمكن للدارس أن يقف عليها ويتعرف على مضامين بعض منها (١) .

نثره :

برز ابن نُباتة المصري في ميدان الشعر والنثر ، وأثنى عليه الباحثون وأشادوا بقدرته العالية في التأليف . قال أحدهم (٢) : (وله الشعر الرائق، والنثر الفائق ، وهو أحد من حذا حذو القاضي الفاضل ، وسلك طريقه ، وأجاد فيما سلك ، وكان خطه في غاية الحسن) .

ان اعجابه بالقاضي الفاضل واضح في أسلوبه ، وقد اختار ـ كما ذكرنا ـ مختارات من نثره في مجلد سماه (الفاضل من انشاء الفاضل) ، والمعروف عن القاضي الفاضل أنه صاحب قلم رفيع في الكتابة . قال النويري (٣) (إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الانشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لامحالة والفاضل بغير إطالة) .

كان القاضي الفاضل يميل الى تشخيص المعاني ، والتوفر على ألوان البديع

(١) تنظر مقدمة كتاب «سرح العيون» تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ١٨ ـ ٢٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ١١ : ٩٥ .

(٣) نهاية الأرب ٨ : ١ .

لاسيما الجناس والتورية وتضمين الشعر والاقتباس من آي الذكر الحكيم والاكثار من العطف والترادف . والجنوح الى الاطناب . ولم يلتزم ابن نباتة المصري بهذه الطريقة كل الالتزام ، فقد تخفف منها في كثير من الأحيان ومال الى الاسلوب المطلق ، مثال ذلك مانراه في كتابه (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) ونقتبس هنا طرفاً منه ، قال في ولادة بنت المستكفي(١) :

(كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء الغرب الأمويين المنسوبين الى عبدالرحمن بن الحكم المعروف بالداخل ، من بني عبدالملك بن مروان ، تسمى ولاّدة بنت المستكفي بالله محمد بن المستظهر بالله عبدالرحمن ؛ ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله ؛ وتغلب ملوك الطوائف عليه ، في خبر يطول شرحه . وصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت ذات خلق جميل ، وأدب غضّ ، ونوادر عجيبة ونظم جيد ... وكان ابن زيدون كثير الشغف بها ، والميل إليها ؛ وأكثر غزل شعره فيها وفي اسمها) .

ولا بأس ان نذكر هنا أيضاً جزءاً من رسالته (مفاخرة بين السيف والقلم لنقف على اسلوبه المسجوع الذي جانب فيه التعقيد المقيت ، قال على لسان القلم يردّ على السيف (٢) :

(أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضراب ؛ وأنا للعمارة وأنت للخراب ... أعلى مثلي يشقّ القول . ويرفع الصوت والصول ، وأنا ذو اللفظ المكين ، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى : أو مَنْ يُنشّأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين (٣) . فقد تعديت حدّك ، وطلبت مالم تبلغ به جهدكَ . هيهات أنا القائم بمصالح

---

(١) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص ٢٢ .

(٢) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ص ١٠٦ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية ١٨ .

الدول وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريحٌ ...
والساعي في تدبير حال القوم ، والمفني لنفعهم العمر ، إذا كان نفعك يوماً
أو بعض يوم ، فاقطع عنك أسباب المفاخرة ، واستر أنيابك عند المكاشرة
فما يحسن بالصامت محاورة المفصح ، والله يعلم المفسد من المصلح) .

بعد ان هبت على العراق زوبعة التتر ، ومحت جزءاً كبيراً من معـالم الحضارة والمدنية ، وشرّدت العلماء والأدباء ، نهضت مصر بحركة لابأس بها في ميداني العلوم والآداب ، ودفعت المفكرين الى التأليف والتصنيف فظهرت موسوعات هامة مثل نهاية الأرب للنويري ، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، ولسان العرب لابن منظـور ، وصبـح الأعشى لابي العباس القلقشندي الذي نحن بصدد ترجمته .

ولد أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (١) سنة ٧٥٦هـ ببلدة يقال لهـا (قَلقَشَنْدة) من أعمال مديرية القليوبية بالديار المصرية من أصل عربي من بني بدر بن فزارة من قيس عيلان .

نشأ نشأة علمية ، وتربى تربية صحيحة ، ونال قسطاً وفيراً من العلـوم في بلدته ثم توجه الى الاسكندرية وأقام بها مدّة من عمره في طلب العلـم على مشهوري العلماء في زمانه ، وأجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص عمر ابن الحسن المشهور بابن الملقن بالفُتيا والتدريس وعمره يومئذ إحدى وعشرون سنة ، وفي تلك الاجازة أشاد الأستاذ بتلميذه بانه (٢) (ممن شبَّ ونشأ في طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالاً يُرضي ، وإلى نيل السعادة – إن شاء الله تعالى – يفضي)

جلس أبو العباس القلقشندي للتدريس ، فانتفع به كثيرون ، وأفاد منـه لطلاب ورواد المعرفة ، وفي سنة ٧٩١هـ اختير للعمل في ديوان الانشاء ، ولم تمنعه الوظيفة عن البحث والتأليف وافادة المقبلين عليه وتوفي عاشر جمادي الآخرة سنة ٨٢١هـ ، وله خمس وستون سنة .

(١) ترجمته في الضوء اللامع ٢ : ٨ ، المنهل الصافي ١ : ٣٣٠ ، مفتاح السعادة ١ : ١٨٢ ، شذرات الذهب ٧ : ٤٩ ، آداب اللغة العربية ٣ : ١٣٣ ، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى الدكتور عبداللطيف حمزة .

(٢) صبح الاعشى ١٤ : ٣٢٢ – ٣٢٥

آثاره :

كانت حياة أبي العباس القلقشندي حافلة بالتأليف واغناء المكتبة بمجموعة من الكتب القيمة ، وقد طبع قسم منها ، وينتظر القسم الآخر التحقيق والنشر ، وهي :

١ – شرح الحاوي الصغير في الفروع ، لنجم الدين عبد الغفار القزويني المتوفي سنة ٦٦٥هـ .

٢ – حلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم ، وهي رسالة أنشأها للمقر الزيني أبي يزيد الدوادار القاهري . منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٦٥ مجاميع م .

٣ – كنه المراد في شرح بانت سعاد .

٤ – الكواكب الدرية في المناقب البدرية وهي مقامة في تقريظ القاضي بدر الدين بن القاضي علاء الدين رئيس ديوان الانشاء آنذاك .

٥ – نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب . وهو مطبوع .

٦ – قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان . وهو مطبوع .

٧ – الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع وهو في علم الفقه على مذهب الأمام الشافعي .

٨ – صبح الأعشى في صناعة الانشا (١) . وهو مطبوع ، ويُعدُّ أهم كتب القلقشندي ذيوعاً وانتشارا ، ويتكون من مقدمة في آداب مهنة الكتابة والتعريف بديوان الانشاء ، وعشر مقالات ، الأولى فيما يحتاج اليه الكاتب الثانية في المسالك والممالك ، الثالثة في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات وغيرها من ذكر الأسماء والكنى والألقاب ، وكيفية تعيين صاحب ديوان الانشاء القصصي والمربعات ونحوها على كتاب الانشاء ، ومقادير

(١) له مختصر بعنوان ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر طبع الجزء الأول منه فقط .

البياض في اول الدرج وحاشيته وبعد مابين السطور في الكتابات ، وبيـــان المستندات وكتابة الملخصات ، وبيان الفواتح والخواتم . الرابعة في المكاتبات الخامسة في الولايات والبيعة . السادسة في الوصايا الدينية ، والمسامحات . والاطلاقات ، والطرخانات والتحويلات ، والتذاكر ، السابعـــــة في الاقطاعات والمقاطعات . الثامنة في الايمان ،التاسعة في عقود الصلح والفسوخ العاشرة في فنون من الكتابة يتداولها الكتّاب ويتنافسون في عملها ليس لها تعلّق بكتابة الدواوين السلطانية ولاغيرها . أما الخاتمة ففي ذكر أمور تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة .

ان كتاب صبح الاعشى مؤلف من اربعة عشر جزءاً تحتوي فهارسه على ثلاثين نوعاً من انواع المكاتبات الصادرة عن دواوين الانشاء (١) . فهـــو ذخيرة ضخمة لايستغني عنها الدارس في فنون النثر .

نثره :

عُني القلقشندي بالكتابة عناية فائقة ، وجرى أسلوبه — في الغالب — مع الطبع ، ما عدا مقدمات كتبه التي التزم في الجزء الاعظم منها بالسجع مثل قوله في مقدمة كتابه صبح الأعشى (٢) :

«الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأربح البضائع وأنفعها ، وأفضل المآثر وأعلاها ، وآثر الفضائل وأغلاها . لا سيما كتابة الانشاء التي هـــي منها بمنزلة سلطانها ، وإنسان عينها بل عين إنسانها ، لا تلتفت الملوك إلاّ إليها ، ولا تعوّل في المهمات إلاّ عليها . يعظمون أصحابها ويقربون كتّابها ، فحليفها أبداً خليق بالتقديم ، جدير بالتبجيل والتكريم» .

---

(١) صنع فهارس صبح الأعشى محمد قنديل البقلي ، وطبعه في جزء مستقل بمطبعة دار الهنا في القاهرة سنة ١٩٧٢ .

(٢) صبح الأعشى : ١ : ٦ .

لقد كان القلقشندي غزير العلم وافر المعرفة ، تجلى ذلك في كتابه صبح الاعشى الذي شحن فيه مادة كبيرة من النثر العربي وعرضها بطريقة سهلة ومفهومة بعيدة عن التعقيد والتصنع والزخرفة . ولنأخذ هنا — مثلاً — ما قاله تحت عنوان : الشعر والغناء (١) .

«أول من قصّد القصائد مُهلهل خال امريء القيس ، والقصيد ما زاد على سبعة أبيات .

أول من أطال الرجز العجاج . قيل إنّ الرجز كان في الجاهلية إنما يقول منه الرجل البيتين أو الثلاثة في الحرب ونحوه حتى جاء العجاج ففتح أبوابه وشبهه بالشعر ، ووصف فيه الدبار وأهلها ، والرسوم والفلوات ، ونعت الابل والطلول ، وكان في أول الاسلام يشبه بامريء القيس .

أول من استخرج اللطيف من المعاني في الشعر وجرى على طريقة البديع مسلم بن الوليد .

أول من أخرج الغناء العربي جرادة جارية ابن جُدعان فيما قاله العسكري. وفيه نظر ، فإن الغناء معهود من عهد عاد حتى كان من جملة مغنياتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال «غنّته الجرادتان» .

أول من علم الجواري المُثمنات الغناءَ ابراهيم الموصلي ، وكان بمكة لا يعلمون الجارية الحسناء الغناء» .

---

(١) صبح الأعشى ١ : ٤٣٣ .

يوسف البديعي ؟ – ١٠٧٣هـ

يكتنف الغموض حياة يوسف البديعي ، فلا يُعرف اسم أبيــه (١) ، والأسرة التي درج في أحضانها ، والأساتذة الذين أخذ عنهم ...

ولد يوسف البديعي في دمشق ، وهي احدى المدن المشهورة بمدارسهــا ومنتدياتها العلمية والأدبية ، وتعلّم في أكنافها وأخذ من علمائها حتى شبَّ أديباً شاعراً يشار إليه بالبنان .

– قال المحبي عنه (٢) : «الأديب الذي زين الطروس برشحات أقلامه» ، فلو أدركه البديع لاعتزل صناعة الانشاء والقريض عند استماع نـشـره ونظامه» .

ارتحل إلى حلب بعد أن وجد في نفسه القابلية على مجابهة الحياة ، حلوها ومرها ، ومكث فيها مدة طويلة ، وأقام علاقات طيبة مع شخصياتها البارزة ، ومدحهم بشعر كثير ، لا سيما القاضي عبدالرحمن بن الحسام ، وألّفَ فيها أغلب كتبه . قال المحبي :

«خرج من دمشق في صباه فحلَّ حلب ، فلم يزل حتى بلغ الشهرة الطنانة في الفضل والأدب والف المؤلفات الفائقة» .

ولي في أخريات حياته قضاء الموصل ، ويبدو أنه لم يستأنس بهذه الوظيفة ، فاعتزلها ومضى إلى القسطنطينية وفيها قضى نحبه سنة ١٠٧٣هـ .

آثاره :

١ – أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري ، وهو مطبوع .

٢ – الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، وهو مطبوع .

---

(١) في هدية العارفين ٢ : ٥٦٧ يوسف بن عبدالله على طريقة المتأخرين فيمن جهلوا اسم ابيه.

(٢) خلاصة الأثر ٤ : ٥١٠ .

(٣) خلاصة الأثر ٤ : ٥١٠ .

٣ — هبة الأيام فيما يتعلّق بأبي تمام ، وهو مطبوع . وقد غاب اسمه عن المحبي فسماه «ذكرى حبيب» .

٤ — الحدائق البديعية .

٥ — هدايا الكرام في تنزيه آباء النبي عليه السلام .

نثره :

نثر يوسف البديعي سهل بسيط ، وبعيد عن الالتواء والتعقيد . وغالب كتاباته شبيهة بما جاء في الكتب التعليمية ، خاصة الكتب التي تحدّثَ فيها عن سيرة أبي تمام وأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري وما أورد لهم من شعر والتعليق عليه . يقول — مثلا — عن أبي تمام (١) : «ولأبي تمام طريقة في ذم الشيب ، والتألم به ، والجزع منه ، كقوله في قصيدته التي مدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الغزواني وأولها :

أما إنه لولا الخليط المودع وربع عفا منه مصيف ومَرْبع
لردت على أعقابها أريحية من الشوق واديها من الدمع مترع

يقول لولا أن الخليط ودعنا ، فجدد ذكره شوقنا ؛ وأن الربيع عفا منزل الخليط منه في الصيف والربيع لرددنا أريحية الشوق على عقبها ، ولكنها غلبت علينا بوداع الأحبة وبدروس المنازل بعدهم ، فأثارت لنا من الشوق ما حملنا على أن نأتي من الدمع مثل الوادي المترع» .

وكتب البديعي زاخرة بأخبار ممتعة عن الشعراء والكتاب ، من ذلك الخبر الآتي عن أبي الطيب المتنبي (٢) : «قيل إن رجلاً من مدينة السلام كان يكره أبا الطيب المتنبي ، فآلى على نفسه ألا يسكن مدينة يُذكر بها أبو الطيب ،

---

(١) هبة الأيام ص ٢٩٠ .

(٢) الصبح المنبي ص ١٦٠ .

ويُنشَدَ كلامُه ، فهاجر من مدينة السلام ، وكان كلما وصل بلداً يسمع بها ذكره يرحل عنها ، حتى وصل إلى أقصى بلاد الترك ، فسأل أهلها عن أبي الطيب فلم يعرفوه ، فتوطنها ، فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى صلاتها بالجامع ، فسمع الخطيب ينشد بعدما ذكر اسماء الله الحسنى :

أساميـاً لم تَزِدْه معـرفةً وإنّمـا لذّةً ذكرناها (١)

فعاد إلى دار السلام» .

---

(١) الأسامي جمع الأسماء جمع الاسم ، ونصب أسامياً باضمار فعل كأنه قال ذكرت أسامياً دل عليه قوله ذكرناها . يقول : هذه الأسماء التي ذكرتها لم تزده معرفة فوق شهرته فهو مستغن عن التعريف وانما ذكرتها استلذاذاً بلفظها وسماعها(شرح ديوان المتنبي ٢:٥٠٣).

عبد القادر بن عمر البغدادي ١٠٣٠ / ١٠٩٣هـ

في حقبة قلقة من تأريخ العراق ، حيث الصراع الدامي بين الفرس الصفويين والأتراك العثمانيين إلى جانب ضعف الحالة الاجتماعية والثقافية، عاش العالم الجليل عبد القادر بن عمر بن بايزيد بن الحاج أحمد البغدادي(١) الذي رفد المكتبة العربية بذخيرة قيمة لازال طلاب المعرفة يعودون اليها ويستفيدون منها :

ولد في بغداد سنة ١٠٣٠هـ في أسرة محبة للعلم والادب ، وتردد على مدارس بغداد منذ الصبا وأخذ من علمائها واتقن إلى جانب اللغة العربية اللغتين التركية والفارسية .

نزح إلى دمشق سنة ١٠٤٨هـ واتصل بنقيب الاشراف الطالبيين فيها محمد ابن كمال الدين الحسيني ، فأكرمه واحتفى به وجعل له منزلا قبالة داره ، وأفاده من علمه . واتصل كذلك بالعلماء الأفذاذ الآخرين ودرس عليهم علوم اللغة العربية ولا سيما الإمام محمد بن يحيى المرضي .

ورحل إلى القاهرة سنة ١٠٥٠هـ لاستكمال متطلبات دراسته ، وطاب له المقام فيها ، واختلف إلى مجالس العلماء والأدباء أمثال شهاب الدين الخفاجي وياسين بن زين الدين الحمصي وسري الدين الدروري والبرهان ابراهيم المأموني .. وقد أجازه الخفاجي بمؤلفاته كلها ، وكان كثير الاكبار والتعظيم له . قال (٢) : «جميع ماحفظته قطرة من غدير الشهاب ، وما استفدت هذه العلوم الأدبية إلا منه» ، ولازم مكتبته وقرأ ما فيها من كتب مهمة ثم تملك أكثرها بعد وفاته . وقال عن نفسه (٣) : «وكنت ممن مرن في علم الأدب ، حتي صار يُلبّيه من كثب ؛ وأفرغ في تحصيله جهدَه .

(١) ينظر التقديم الذي كتبه عبد السلام محمد هارون لكتاب خزانة الأدب ٣ - ٢٤ .
(٢) خلاصة الاثر ٢:٤٥٢ .
(٣) خزانة الأدب ١:٢ .

وبذل فيه وكده وكدّه ؛ وجمعَ دواوينه ، وعرفَ قوانينه ، واجتمعَ عنده بفضل الله من الأسفار ، مالم يجتمع عند أحد في هذه الأعصار» .

وكانت القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية ومحط انظار الأدباء والعلماء آنذاك ، فسافر اليها سنة ١٠٧٧هـ ومكث قليلاً فيها ثم عاد إلى القاهرة ثانية واتصل بواليها ابراهيم باشا وصار نديماً له وسميراً ، وحينما عزل هـذا الوالي رافقه إلى ادرنا في تركيا سنة ١٠٨٥هـ ومن هناك اتصل بالوزير العالم الأديب أحمد بن محمد باشا كوبرلي ونال إعجابه ، وهو الذي مهّدَ له سبيل الوصول إلى السلطان محمد بن السلطان ابراهيم ، وأهدى لهذا السلطان كتابه الكبير الموسوم بـ «خزانة الأدب» .

مرض في أدرنة ، وأصيب بالرمد ، وعاد إلى القاهرة ، وتوفي بها سنة ١٠٩٣هـ .

آثاره :

١ ــ خزانة الأدب ولبّ لُباب الأدب ، وأفضل طبعة لهذا الكتاب بتحقيق عبدالسلام محمد هارون .

٢ ــ شرح شواهد شرح الشافية للرضي الاستراباذي . وهو مطبوع .

٣ ــ شرح أبيات مغني اللبيب وهو مطبوع .

٤ ــ حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام ، وهو مطبوع .

٥ ــ شرح التحفة الشاهدية باللغة العربية ، وهي منظومة باللغة التركية لابراهيم دده الشاهدي . منه نسخة خطية بالمكتبة التيمورية .

٦ ــ رسالة في معنى التلميذ . نشرها عبدالسلام محمد هارون في مجلة المقتطف سنة ١٩٤٥ ، وأعاد نشرها في المجلد الأول من نوادر المخطوطات .

٧ ــ شرح مقصورة ابن دريد .

٨ ــ رسالة في توجيه قراءة ابن محيصن في الاستبرق وتحقيق كونها معربة .

٩ ـ مختصر تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون لخليل بن أيبك الصفدي .

١٠ ـ مقصد المرام في عجائب الأهرام .

١١ ـ لغة شاهنامة ، شرح فيه باللغة التركية غريب الألفاظ الفارسية في كتاب شاهنامة . طبع في بطرسبرج سنة ١٨٩٥ .

١٢ ـ تراجم العلماء ، منه نسخة خطية في مكتبة عاشر أفندي ١: ٦٢٧

وأهم هذه الكتب وأجلها كتاب (خزانة الأدب) ، وهو شرح لشواهد الكافية (٩٥٧ شاهداً) . والكافية كتاب في النحو لابن الحاجب المتوفي سنة ٦٤٦هـ . وقد أهدى هذا الكتاب الى السلطان محمد بن السلطان ابراهيم العثماني . ويعد أعلى موسوعة في علوم العربية وآدابها . شحنه بالنصوص النادرة . وحفظ لنا به بقايا من كتب قد فقدت أو اندثرت ، مع عناية حازمة بالنقد والتحقيق لكلّ مايورده من ذلك .

هذا الى سرده لكثير من أمثال العرب وبيان معانيها ومضاربها وأصولها وحشده للغات القبائل ولهجاتها ، وحرصه على إيراد قصائد الأبيات التي تعرّض لها ، مع شرح الكثير منها شرحاً محققاً . مستطرداً في ذلك إلى أخبار العرب وذكر أيامها في الجاهلية والاسلام ، الى العناية الكاملة بالمقصد الأول لشرح الشواهد . وهو تحقيق المسائل النحوية ، واستيعاب دراستها ، مع الاعتماد على أمهات النحو ومطولاته ، ومراجع شروح الشواهد ، في علاج علمي نقدي (١) .

---

(١) تقديم عبدالسلام محمد هارون لكتاب خزانة الأدب ص ١٩ . وينظر «عبدالقادر بن عمر البغدادي وجهوده النحوية واللغوية في خزانة الأدب» تأليف حسن سليمان حسن . رسالة ماجستير ـ جامعة الموصل ، كلية الآداب ١٩٨٥ .

نثره :

كان عبدالقادر البغدادي فطناً ذكياً ، قرأ مئات الكتب ، وحفظ شيئاً كثيراً منها ، فاكتسب بذلك حذقاً ومهارة في نقد النصوص ومقارنتها . وكان دقيقاً ، يتحرى الصحة في الكتابة ولا يتحرج من التنبيه على بعض ما وهم فيه أساتذته أو السابقون له كما يفعل المحقق الثبت المتمكن من مادته العلمية . قال المحبي عنه (١) : (وكان فاضلاً بارعاً مطلعاً على أقسام الكلام العرب النظم والنثر ، راوياً لوقائعها وحروبها وأيامها ، وكان يحفظ مقامات الحريري وكثيراً من دواوين العرب على اختلاف طبقاتهم ، وهو أحسن المتأخرين معرفة باللغة العربية والأشعار والحكايات البديعة مع الثبت في النقل وزيادة الفضل والانتقاد الحسن ومناسبة ايراد كل شيء منها في موضعه مع اللطافة وقوة المذاكرة وحسن المنادمة) .

إن اسلوب عبدالقادر البغدادي سهل مرسل ، لاغرابة فيه ولاتعقيد غايته إيصال المعرفة ودقائق العلم الى القراء بأيسر الطرق ، خاصة في كتبه التي اتخذت طابع الشرح والايضاح والتبيين . من ذلك قوله موضحاً منهجه في تأليف كتاب خزانة الادب (٢) : (ولهذا اجتهدنا في تخريج أبيات الشرح ، وفحصنا عن قائليها ، حتى عزونا كلَّ بيت إلى قائله – ان أمكننا ذلك – ونسبناه الى قبيلته أو فصيلته ،وميزنا الإسلاميَّ عن الجاهلي ، والصحابيَّ عن التابعي ، وهلم جرا ، وضممنا إلى البيت مايتوقف عليه معناه ، وان كان من قطعة نادرةٍ أو قصيدةٍ عزيزةٍ ، أوردناها كاملةً وشرحنا غريبها ومشكلها ، وأوردنا سببَها ومنشأها ؛ كلُّ ذلك بالضبط والتقييد ، ليعمَّ النفع ، ويؤمن التحريف والتصحيف ، وليوثق بالشاهد لمعرفة قائله ، ويُدفع احتمال ضعفه) . لقد طغت الصفة العلمية على القطعة

---

(١) خلاصة الأثر ٢ : ٤٥٦ .

(٢) خزانة الادب ١ : ١٥ .

السابقة ، فلا يجد القارىء في فهمها صعوبة أو كداً للذهن ، يضاف الى ذلك بعدها عن الزخارف اللفظية والتعقيدات المعنوية . وننقل هنا نصاً آخر لـه تأكيداً لما قلناه عن اسلوبه ، وذلك قوله عن الأبيات التي أوردها سيبويه في كتابه (١) : (ولكون أبياته أصحّ الشواهد ، التزمنا في هذا الشرح أن ننصّ على ماوجد فيه منها بيتاً بيتاً ، ونميزُها عن غيرها ، ليرتفع شأنها ويظهر رجحانها . وربما روي البيت الواحد من أبياته أو غيرها على أوجه مختلفة ، وربّما لايكون موضع الشاهد في بعضها أو جميعها ، ولاضير في ذلك ، لأن العرب كان بعضهم ينشد شعره للآخر فيرويه على مقتضى لغته التي فطره الله عليها وبسببه تكثر الروايات في بعض الأبيات ، فلا يوجب ذلك قدحاً فيه ولا غضاً منه . فإذا وقع في هذا الشرح من ذلك شيء نبّهنا عليه) .

(١) خزانة الأدب ١ : ١٧ .

الخاتمة

لقد استعرضنا في الدراسة الموجزة السابقة الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية التي تلت سقوط الدولة العباسية ، وما رافق هذه الأوضاع من أحداث جسام وتحولات خطيرة إبان حكم الدول الأعجمية الطارئة . ثم ، درسنا الشعر في ظل هذه الدول وخصائصه الفنية . وقد وجدنا فيه جوانب مشرقة وقبسات متوهجة جديرة بالرعاية والعناية من لدن الدارسين لابرازها وربطها بالحلقات الذهبية السالفة في تراثنا الشعري الضخم .

وخلقت الظروف الجديدة – بعد انحسار الثقافة العميقة من ساحة الجم الغفير من الشعب – فنوناً جديدة في الأدب ، استساغها الكثيرون ، وتناقلوها في مجالسهم ، بعضها بالفصحى ، وبعضها الآخر بالعامية . وكان لنا في هذه الفنون دراسة مقتضبة . وهي الدوبيت والموشح ، والزجل ، والمواليا ، والكان وكان ، والقوما ، والبند .

واحتفظ الشعراء بمنزلتهم الرفيعة لدى الخاصة والعامة ، وكان البارزون منهم قلة قياساً إلى العصور الأدبية الزاهرة سابقاً . وقد درسنا سيرة فريق من هذه القلة ، وأمعنا النظر في شعره وبينا طوابعه ومزاياه .

أما النثر فقد راجت سوقه أكثر من الشعر ، واعتلى الكتاب منازل رفيعة ، وظهرت لهم مجاميع ضخمة في اللغة والأدب والتاريخ ...، وفي هذا الكتاب سلطنا الضوء على عدد منهم ، وعلى الأساليب التي اتبعوها في كتاباتهم .

وبعد هذه الالمامة ، آمل من دارسي هذه الحقبة أن يصححوا نظراتهم الى أدبه – شعراً ونثراً – ، ويلتفتوا إليه ، ويعنوا بدراسته دراسة فاحصة ، ليستخرجوا درره ويجلوها للناظرين ، والله من وراء القصد .

المصادر والمراجع

١ - اتجاهات الشعر العربي في العراق : بلقيس عبدالله الحميدي . رسالة دكتوراه - جامعة بغداد ١٩٨٣ .

٢ - أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، أو تاريخ الاسحاقي : محمد بن عبد المعطي الاسحاقي . المط الأزهرية - القاهرة ١٣١١ هـ .

٣ - الادب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري : د. علي صافي حسين . مط دار المعارف القاهرة ١٩٦٤ .

٤ - الأدب في بلاد الشام : د . عمر موسى باشا . المكتبة الهاشمية - دمشق ١٩٧٣ .

٥ - الأدب في العصر المملوكي : د . محمد زغلول سلام . مط دار المعارف القاهرة ١٩٧١ .

٦ - الادب في العصر المملوكي : د . محمد كامل الفقي . مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٦ .

٧ - الأدب المصري في ظل الحكم العثماني : محمد سيد كيلاني . دار القومية العربية للطباعة القاهرة ١٩٦٥ .

٨ - أدباء حليون : د . جواد علوش . منشورات عويدات - بيروت ١٩٧٨ .

٩ - الأساس في تأريخ الأدب العربي : محمد بهجة الأثري ، د . مصطفى جواد ، كمال ابراهيم . مط العاني - ١٩٥٦ .

١٠ - بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابن اياس . ط بولاق ١٣١١ هـ

١١ - البداية والنهاية : ابن كثير . مط السعادة - القاهرة ١٩٣٢ .

١٢ - بلوغ الأمل في فن الزجل : ابن حجة الحموي . تح : د . رضا محسن القريشي . مط وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٤ .

١٣ ـ البند في الأدب العربي : عبد الكريم الدجيلي . مط المعارف ـ بغداد ١٩٥٩ .
١٤ ـ تأريخ ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم بن الفرات : المط ـ الأمريكية ـ بيروت ١٩٦٩ .
١٥ ـ تأريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان . مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٧ .
١٦ ـ تأريخ الادب العربي ، عصر الدول والامارات : د . شوقي ضيف مطابع دار المعارف بمصر ١٩٨٠ .
١٧ ـ تاريخ الامة العربية ، عصر الانحدار : محمد أسعد طلس . مط دار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٣ .
١٨ ـ تتمة المختصر في أخبار البشر : ابن الوردي . مط دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٠ .
١٩ ـ التذكرة الفخرية : بهاء الدين علي بن عيسى الاربلي . تح . د . نوري حمودي القيسي ، د . حاتم صالح الضامن . مط المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٩٨٤ .
٢٠ ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قا وون : محي الدين بن عبد الظاهر . تح : د . مراد كامل . الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦١ .
٢١ ـ التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان : عباس العزاوي . شركة التجارة في الطباعة ـ بغداد ١٩٥٧ .
٢٢ ـ تلخيص مجمع الاداب في معجم الألقاب : ابن الفوطي . تح . د . مصطفى جواد . المط الهاشمية ـ دمشق ١٩٦٢ .
٢٣ ـ الجامع المختصر : ابن الساعي . تح : د . مصطفى جواد . المـط السريانية الكاثوليكية ـ بغداد ١٩٣٤ .

٢٤ ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية : عبد القادر بن أبي الوفاء محمد . مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٣٣٢ هـ .
٢٥ ـ الحوادث الجامعة : منسوب الى ابن الفوطي . تح : د . مصطفى جواد . مط الفرات ـ بغداد ١٣٥١ هـ .
٢٦ ـ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : د . أحمد احمد بدوي . مط النهضة ـ القاهرة ١٩٥٢ .
٢٧ ـ الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري : د . محمد مفيد آل ياسين . الدار العربية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٩ .
٢٨ ـ خزانة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي . المط الخيرية ـ القاهرة ١٣٠٤ هـ .
٢٩ ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبد القادر بن عمر البغدادي تح : عبد السلام محمد هارون . مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب . ط ٢ ـ القاهرة ١٩٧٩ .
٣٠ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر : محمد أمين بن فضل الله المحبي . المط الوهبية ـ مصر ـ ١٢٨٤ هـ .
٣١ ـ الدارس في تأريخ المدارس : عبد القادر بن محمد النعيمي . تح : جعفر الحسني . مط الترقي ـ دمشق ١٩٤٨ .
٣٢ ـ دار الطراز في عمل الموشحات : ابن سناء الملك . تح : د . جودة الركابي ـ دمشق ١٩٤٩ .
٣٣ ـ دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين : د . محمد كامل حسين . مط دار المعارف ـ مصر ١٩٦٦ .
٣٤ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة : ابن حجر العسقلاني . مط المدني القاهرة ١٩٦٦ .
٣٥ ـ ديوان ابن قلاقس الاسكندري : نصرالله بن عبدالله بن قلاقس . تح : د . سهام الفريح . المط العربية الحديثة ـ القاهرة ١٩٨٢ .

٣٦ ـ ديوان ابن معتوق : شهاب الدين بن معتوق الموسوي . المط الأدبية بيروت ١٨٨٥ .
٣٧ ـ ديوان ابن نباتة المصري : محمد بن شمس الدين محمد . مط التمدن القاهرة ١٩٠٥ .
٣٨ ـ ديوان ابن الوردي : عمر بن مظفر بن عمر الوردي .مط الجوائب قسطنطينية . ١٣٠٠ هـ .
٣٩ ـ ديوان أبي حيان الأندلسي : محمد بن يوسف بن علي . تح : د . أحمد مطلوب . د . خديجة الحديثي . مط العاني ـ بغداد ١٩٦٩ .
٤٠ ـ ديوان التلعفري : محمد بن يوسف التلعفري .مط المعارف ـ بيروت ١٣٢٦ هـ .
٤١ ـ ديوان الحاجري : عيسى بن سنجر الاربلي . المط الشرقية ـ مصر ١٣٠٥ هـ .
٤٢ ـ ديوان الدوبيت في الشعر العربي : د . كامل مصطفى الشيبي . ط دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٢ .
٤٣ ـ ديوان صفي الدين الحلي : صفي الدين عبد العزيز بن سرايا . مط دار صادر ـ بيروت . د . ت .
٤٤ ـ ذيل مرآة الزمان : قطب الدين اليونيني . مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٥٤ .
٤٥ ـ روضات الجنات : الخوانساوي المط الحيدرية ـ طهران ١٣٩٠ هـ
٤٦ ـ الروضتين في أخبار الدولتين : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي . مط وادي النيل ـ القاهرة ١٢٨٨ هـ .
٤٧ ـ السمو الروحي في الأدب الصوفي : أحمد عبد المنعم الحلواني . مط مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٤٩ .
٤٨ ـ شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي . نشر مكتبة القدسي ـ القاهرة ١٣٥١ هـ .

٤٩ ــ شعراء الحلة أو البابليات : علي الخاقاني . المط الحيدرية ــ النجف ١٩٥٢ .
٥٠ ــ الصبح المنبي عن حيثية المتنبي : يوسف البديعي . مطابع دارالمعارف ــ القاهرة ١٩٦٤ .
٥١ ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : السخاوي : مط السعادة ــ القاهرة ١٣٥٥ هـ .
٥٢ ــ الطالع السعيد : جعفر بن ثعلب الادفوي . تح : سعد محمد حسن . مطابع سجل العرب ــ القاهرة ١٩٦٦ .
٥٣ ــ طبقات الشافعية : السبكي . المط الحسينية ــ القاهرة ١٩٢٤ .
٥٤ ــ العاطل الحالي والمرخص الغالي : صفي الدين الحلي .. تح : ولهلم هونرباخ . ط ألمانيا ١٩٥٥ .
٥٥ ــ عقود الآل في الموشحات والأزجال : شمس الدين النواجي . تح : عبد اللطيف الشهابي . دار الرشيد للنشر ــ بغداد ١٩٨٢ .
٥٦ ــ علم القافية : د . صفاء خلوصي . مط المعارف ــ بغداد ١٩٦٣ .
٥٧ ــ الغيث المسجم في شرح لامية العجم : خليل بن أيبك الصفدي . دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٧٥ .
٥٨ ــ الفخري في الآداب السلطانية : ابن الطقطقا . مط دار صادر ــ بيروت ١٩٧٣ .
٥٩ ــ فضولي البغدادي : د. حسين علي محفوظ . مط البرهان ــ بغداد ١٩٥٨ .
٦٠ ــ الفلاكة والمفلوكون : شهاب الدين الدلجي . مط الآداب ــ النجف ١٣٨٥هـ .
٦١ ــ فنون الأدب الشعبي : رشدي صالح . دار الهنا للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٥٦ .

٦٢ — الفنون الشعرية غير المعربة : د. رضا محسن القريشي . دار الحرية للطباعة — بغداد ، المواليا ١٩٧٦ ، الزجل في المشرق ١٩٧٧ ، الكان وكان والقوما ١٩٧٧ .

٦٣ — فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي . تح : د. احسان عباس . مط دار صادر — بيروت ١٩٧٣ .

٦٤ — في الأدب الاسلامي ، فضولي البغدادي . د. حسين مجيب المصري . مط الفكرة — القاهرة ١٩٦٧ .

٦٥ — في الأدب الأندلسي : د. جودة الركابي . مط دار المعارف — القاهرة ١٩٧٥ .

٦٦ — في موكب الخالدين : عبدالسميع المصري . مط دار الكتاب العربي — القاهرة ١٩٦٠ .

٦٧ — قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان : أبو العباس القلقشندي . تح : ابراهيم الأبياري . مط السعادة — القاهرة ١٩٦٣ .

٦٨ — القلقشندي في كتابه صبح الأعشى : د. عبد اللطيف حمزة . مط مصر — القاهرة ١٩٦٢ .

٦٩ — الكشكول : بهاءالدين العاملي . تح : الطاهر أحمد الزاوي . مط دار احياء الكتب العربية — القاهرة د.ت .

٧٠ — كنز الدرر : أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري . تح : أولرخ هارمان . جـ٨ . مط عيسى البابي الحلبي — القاهرة ١٩٧١ .

٧١ — مختصر التاريخ : ابن الكازروني . تح : د. مصطفى جواد . مط الحكومة — بغداد ١٩٧٠ .

٧٢ — مدارس بغداد في العصر العباسي : عماد عبدالسلام رؤوف . مط دار البصري — بغداد ١٩٦٦ .

٧٣ — المدخل في الأدب العربي : محمد بهجة الأثري . مط الجزيرة — بغداد ١٣٥٠هـ .

٧٤ ـ مرآة الجنان : اليافعي . مط دائرة المعارف الأسلامية ـ حيدر آباد الدكن ١٣٣٨هـ .
٧٥ ـ المستطرف في كل فن مستظرف : الأبشيهي . مط حجازي ـ القاهرة ١٩٥٣ .
٧٦ ـ مطالع البدور : علاءالدين الغزولي . مط ادارة الوطن ـ القاهرة ١٢٩٩ .
٧٧ ـ مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : د. بكري شيخ أمين . مط دار الشرق ـ بيروت ١٩٧٢ .
٧٨ ـ مفتاح السعادة : طاش كوبري زادة . مط الاستقلال الكبرى ١٩٦٨.
٧٩ ـ مقامة في قواعد بغداد : ظهيرالدين الكازروني . مط الارشاد ـ بغداد ١٩٦٢ .
٨٠ ـ ملامح الشعر الأندلسي : د. عمر الدقاق . دار الشرق ـ بيروت ١٩٧٥ .
٨١ ـ المنهل الصافي : ابن تغري بردي . جـ١ . مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٩ .
٨٢ ـ موسقى الشعر : د. ابراهيم أنيس . ط ٥ . مط الأمانة ـ القاهرة ١٩٧٨ .
٨٣ ـ ميزان البند : د. جميل الملائكة . مط العاني ـ بغداد ١٩٦٥ .
٨٤ ـ النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي . مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٦ .
٨٥ ـ نزهة الأنام في محاسن الشام : أبو البقاء عبدالله بن محمد البدري . المط السلفية ـ القاهرة ١٣٤١هـ .
٨٦ ـ النور السافر عن أخبار القرن العاشر : محيي‌الدين العيدروسي ـ بغداد ١٩٣٤ .

٨٧ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري . مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٥ .

٨٨ ـ نهاية الأرب في معرفة انساب العرب : القلقشندي . تح : ابراهيم الأبياري . مط مصر ـ القاهرة ١٩٥٩ .

٨٩ ـ هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام : يوسف البديعي . مط العلوم ـ القاهرة ١٩٣٤ .

٩٠ ـ الوافي بالوفيات : الصفدي . نشر المستشرقين الألمان باستنبول ١٩٣١.

٩١ ـ وفيات الأعيان : ابن خلكان . تح : احسان عباس . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٧٢ .

المحتوى

الباب الثاني

النثر